جورج سيمنون

الدقائق السبع



الدقائق السبع



اسم المؤلف : جورج سيمنون
العنوان الأصلي للكتاب : Les sept minutes
عنوان الكتاب : الدقائق السبع
المترجم عبد الهادي غلاييني
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
تاريخ الطبع : ١٩٩٦

اللوغو : علي شمس الدين

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩٠ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

جورج سيمنون

الدقائق السبع

منشورات

٨





غران لانغوهتييه

* كلمة لانغوستييه «Langoustier» تعني زورقاً لصيد الجراد البحري ، لكنها أطلقت هنا تسمية لموقع في جزيرة بوركرول .
(من المترجم)

دون جوان
بوركرول

...

هاهي إمكانية الاحساس بانفعال قوي جداً عند كل لقاء جديد مع البحر المتوسط ؛ سافرنا طوال الليل . نزلنا في لسان «جيان» البحري وبهر أضواء الصباح على أشده . بدأ تبلد الحواس بالنسبة لي ما إن وضعت قدمي فوق «الكورموران» ، وهو مركب صغير أبيض ، يقوده رجل طيب يعتمر قبعة مستعمرات عريضة الحواف مصنوعة من الفلين ، كان سيقلنا في نصف ساعة إلى جزيرة بوركرول .

تبلد حواس لذيذ على أية حال . كان للماء والسماء مفعول الألعاب النارية عليّ ، كانت الشرارات المنطلقة منها تخترق رأسي عبر عيني . بهرني طويلاً بيت أبيض على الساحل ، لأني لم أتخيل قط أن شيئاً في الدنيا يمكن أن يكون أبيض إلى هذا الحد ، هدير المحرك المنتظم ، وتكدر الماء الحريري في المقدمة ، الذي كانت زرقته في بعض الأماكن تشعرني بالغثيان لاأدري السبب وكأنها

مربى شديد الحلاوة . علماً بأن المركب لم يكن ينوس بنا إلى الأمام وإلى الوراء .

تعرف قبطان الكورموران (كان الطاقم يقتصر عليه وعلى بحار آخر) حقيقة هويتنا منذ أن نزلنا . وفهم أن أحدنا هو الشرطي المنتظر . وأنا مقتنع بأنه اعتقد أن الشرطي كان أنا .

كان «ج ٧» يدخن غليونه الصغير جالساً بوقار في المكان الذي خصص له . رأى مثلي الجزيرة تبرز من بين الأمواج ، وأشجار السرو ناشبة على خلفية من السماء ، ثم حفنة من البيوت الفاتحة اللون ذات الأسطحة الحمراء تتجمع حول مرفأ صغير .

في المرفأ زوارق صيد . من بينها مركب شراعي أكثر أهمية ، يعمل في نقل الرخام من الجزر اليونانية . كان أربعة رجال نائمين على ظهره قرب قدر صغير ، ينضج فيه أخطبوط على نار خفيفة .

تحدثت عن تبلد الحواس ، وحدها بعض التفاصيل ظلت طافية من بين انطباعات دماغي وعينيّ وجلدي كلها ، النزل الوحيد ، بظله الرطب ، ومناخل نوافذه الواقية من البعوض ، ورائحة الزعفران المنبعثة من مطابخه ، وكذلك ساحة القرية محاطة بأشجار الأوكاليبتوس ، ورجال بطيئون يلعبون بدحرجة الكرات .

ثم الممر الرائع المحفوف بنبتات الميموزا . . . وبعض الفيلات المختبئة بين الورود وأشجار النخيل خلف ستائر الأثلاث .

خلعت سترتي . أعاد «ج٧» غليونه الشديد السخونة إلى جيبه ، ومع انطافة غابة صنوبر انكشف لنا الشاطئ الفضي ، حقاً فضي ، كان البحر ينسج على امتداده حاشية خفيفة بيضاء .

شاطئ متعرج . أشجار كبيرة ، وهنا وهناك مجموعات من السابحين .

لكني شعرت فجأة بالخجل ، إذ تعثرت إلى حد ما بجسد امرأة سمراء البشرة . كانت مستلقية على بطنها ورأسها بين يديها . كانت تعرض ظهرها العاري لحرارة الشمس .

بدا «ج٧» كتلميذ خجول تظاهر بأنه لم ير شيئاً!

في مكان أبعد رجل وامرأة . كانا جالسين بالمايوه . لكن المرأة كانت تطلق للهواء الملتهب ثمار نهديها الثقيلين .

لم يكن هناك أكثر من ثلاثين شخصاً فوق الرمال ، متناثرين بعيداً بعضهم عن بعض ، علمت فيما بعد أن معظم السباحين كانوا انجليز وألمان وسويسريين واسكندنافيين .

كان شاب بنظارات يمارس وحده حركات الجمباز السويدي .

قال «ج٧» وهويفتح مفكرته :

ـ هنا ضاعت آثار المفقودات الثلاث!

وقرأ ، تحت الشمس المبهرة ، وبين هذه الروائح كلها ، تحت قبة السماء التي ماكانت بزرقاء ، بل نحاسية متوهجة :

«إيديت بيغلو ، ٢٥ سنة ، مولودة في غلاسكو ، مطلقة منذ عامين . تقضي ثلاثة أشهر في انكلترا ، وشهرين أو ثلاثة في باريس ، وبقية الوقت في الشاطئ اللازوردي «كوت دازور» . تملك ثروة طائلة . تحكي الشائعات عن بعض مغامراتها ، ومن بينها مغامراتها في سان رافا نيل . يوم ١١ حزيران ، بقيت الأخيرة على الشاطئ عند الظهر . لم تشاهد بعدها . وأمتعتها الباقية في نزل بوركرول لم يطلبها أحد .

«مارت دوفيرنون ، ٤٢ سنة ، زوجة بائع تحف قديمة في حي سانت أونوريه . قضت شهرين وحيدة في بوركرول . يوم ١٤ حزيران بعد الظهر كانت تستحم على الشاطئ . بعد السباحة ،

دخلت إلى دغل أشجار قطلب لكي ترتدي ثيابها . لم يعثر عليها من جديد .

« ماري بامبرجيه ، ٢٤ سنة ، سويسرية الجنسية ، عازبة . عندها دخل سنوي بسيط يتيح لها الحياة حيناً على شاطئ اللازورد وحيناً في مصر ، وحيناً في سويسرا . كانت تسبح عموماً على طرف الشاطئ . وحيدة دائماً . يوم ١٨ حزيران لم ترجع إلى النزل وقت وجبة العشاء . »

* * *

يصعب عليّ إعطاء فكرة عن الانفعال الذي أحسست به في هذه اللحظة . أعرف الخوف في الظلام ، تحت المطر ، في اكفهرار المناظر الثلجية ، في غموض المناطق الشمالية .

لكن الخوف هناك تحت الشمس ، في ديكور الحلم هذا ، السابح في الضوء الحار ، شيء آخر . شيء أشد وطأة .

نظرت مرة أخرى من بعيد إلى الأجساد العارية . أو نصف العارية التي لاتكاد تبقع الشاطئ الفضي . ونظرت مرة أخرى إلى نهدي المرأة الجميلين .

وتخيلت ، بنفس السحر ، المفقودات الثلاث ، قرب هذه الموجة الصغيرة البيضاء التي كانت تأتي لتلعق الرمل .

كنت أعلم أن بوركرول ليست محطة على « الموضة » ، ليس فيها ملاعب غولف ، ولاتنس ، ولاكازينو . ليس فيها إلا نزل متواضع جداً ، والفيلات القليلة التي شيدت إبان السنوات الماضية لاتكاد تستحق هذا الاسم .

لايأتي أحد هنا ليتباهى بزينته . هناك فقط بعض المرتادين كل

سنة ، بعض عشاق الماء الصافي الذي يجعلنا نرى أعشاب القاع على عمق عشرة أمتار ، والشمس التي تكسب الجلد اللون الذهبي ، والاسترخاء أياماً بأكملها على الرمل الساخن ، يلتقون هنا في موعد ثابت تقريباً .

إنهم ، عشاق للوحدة أيضاً . يتبادلون التحية ، لكن لايكلم أحدهم الآخر . لكل منهم ، زاويته على الشاطئ ، ويعرف أن أحداً لن يقترب منه .

وها هن ثلاث نساء يختفين في مدى يقل عن عشرة أيام! دون أن يتركن أقل أثر! لم يأخذن الكورموران لينقلهن إلى القارة . ولم يقلّهن أي صياد إلى الطرف الآخر من الماء ، كانت حقائبهن وأمتعتهن ونقودهن في النزل . . .

وتكهنت أن لدى الرجال وبخاصة لدى النسوة ، اللواتي كن يتابعن التمتع ببهاء الجزيرة قلقاً كامناً ، وأحلاماً مفزعة .

لم يجد أحد شيئاً! أي دليل ، أو أدنى أثر ، إلا شيئاً واحداً : كانت الشائعات تقول :

ـ لو يتجرأ أحد ويفتش من جانب غران لانفوستييه! لقد فضلوا أن يكلفوا بهذه المهمة رجلاً ليس من البلد . أرسل «ج٧» إلى موقع الأحداث واقترح عليّ مرافقته .

تجاوزنا الشاطئ وتابعنا طريقنا بين الصخور ، وطئت بقدمي نباتات المنطقة المجهولة ، نباتات غريبة ، معذَّبة ، بعضها وبري ، وبعضها شائك ذو ابر سامة . اجتزنا آثار حصن قديم عن يميننا . اضطررنا للتوقف عشر مرات لنجفف عرقنا ، ولولا تشدد «ج٧» لكنت سبحت هنا عارياً تماماً أنا أيضاً ، في ماء خليج صخري بارد ذي صخور صهباء .

أتذكر شجرة تين تسقط منها تينات ذهبية شديدة الحلاوة ، تنسحق على الأرض ، ولايفكر أحد في جنيها أو جمعها .

وبعد مسيرة نصف ساعة ، وصلنا طرف الجزيرة . كانت تنتهي بلسان بحري . على تخومها صخور نتوءاتها الأخيرة في الماء . كانت تشكل أرصفة مهدبة باللون الفضي .

إلى اليمين هناك أيضاً حصن منفصل عن الجزيرة بقناة مائية عرضها بضعة أمتار فقط . إنه الفران لانفوستييه .

هناك قرب هذا الحصن جدران مهدمة عائدة إلى آخر أعمال التحصين .

كانت الأرض غير منتظمة ، ولاتجد العين ماتتوقف عنده في أي مكان . هناك أحراج متشابكة مرقطة بعنبات القطلب الحمراء . ثم صنوبرات ، ونخلات وأشجارأوكاليبتوس . وهناك في بعض الأنحاء ، بين الجدران المهدمة ، بعض الأسطح الحمراء ، مبعثرة .

وفجأة ، عند منعطف درب ، هناك حاجز مفتوح وممر . ما من أجراس . هناك بيت في نهاية الممر يذكر بالمزرعة والبيت الريفي في منطقة البروفانس . النوافذ كلها مغطاة بستائر خشبية ثقيلة لحجب الداخل . باب مفتوح قليلاً ، لكنه مغطى بستار قشدي اللون .

تجاوزنا الحاجز . وفتشنا عن أحد نتوجه إليه . اندفع كلب صوبنا ، وتوقف على مسافة مترين مهدداً بأنيابه .

كانت سترتي لاتزال فوق ذراعي ، ومنديل منزلق تحت قبعتي القشية كان يتدلى رطباً تماماً فوق نقرتي .

نادى « ج٧ » بصوت غير واثق :

ـ هل هناك أحد ؟

اخترق نباح الكلب طبلة آذاننا . إلى يسار البيت ، في تحصينات قديمة ، زُرعت أشجار موز ، كانت تعطي انطباعاً قوياً لمشهد استوائي . المكان مليء بالأزهار والذباب والحشرات التي جعلتني أنتفض .

ـ هناك أحد! . . . ألو!

انزاحت الستارة المتدلية أمام الباب . ونظرت إلينا فتاة حمراء الشعر ، ثم تكلمت مع أحدهم داخل البيت ، أخيراً خرجت ومشت نحونا . كانت ترتدي مشملاً أزرق مفتوحاً تماماً ، أتاح لنا أن نرى تحته غلالة زهرية اللون . كانت قدماها عاريتين من دون جوارب في خف قديم . كانت تمسك ممسحة وسخة في يدها .

ـ السيد هنري هنا ؟

ترددت . تفحصتنا من الرأس إلى القدمين من دون أن تخفي عداوتها المطلقة لنا .

ارتفع الستار من جديد . ميزنا بمشقة جانباً من وجه . وبالمقابل أطلق صوت قوي سلسلة متتابعة من الشتائم ثم أضاف :

ـ اطرديهم . . بحق الله! هل تسمعين ياإيما ؟ افتحي وجار الكلب! . . . واطلقي «ديك» وراءهم . . .

ثم شتائم ، همهمة حيوان متوحش أزعجه أحدهم أثناء طعامه!

لم يتحرك «ج٧» ظل هادئاً بسحنة لطيفة تماماً .

ـ هل تسمحين وتقولين للسيد هنري أن مفتش البوليس القضائي يرغب . . .

صاح الصوت :

ـ لاأبالي بالبوليس القضائي!

ـ . . . يرغب حتماً التشرف بإجراء حديث معه . . .

هذه المرة ، تحركت الستارة أكثر ومشى السيد هنري باتجاهنا ، بيده مسدس وعلى رأسه خوذة من البيلسان ، كل مايرتديه على جسمه أولاً وأخيراً كان مجرد سروال قصير من نسيج كتاني كذلك الذي يرتدى للتجديف .

لاأزعم أن انطباعاتي كانت واضحة وضوحاً مطلقاً على الفور ، كان الرجل قد انبثق حقاً كدب من وجاره . البارحة كنت لاأزال في باريس .

لاحظت قبل كل شيء أن له صدراً واسعاً ، قوياً ، محتقناً بالشحم قليلاً ومغطى بشعر بني .

لاحظت أيضاً أنه لايعرف تماماً ما الذي يفعله بمسدسه . ثم رأيت وجهه .

قدرت عمره في الأربعين . رأس جميل إلى حد لابأس به ، ملامحه منتظمة ، أنفه معقوف ، عيناه قاتمتان ، لكن هذا الرأس كحال جسده كان محتقناً ببعض الدهن برأيي . شعر أسود حالك ، مقلوب إلى الخلف ، مشكلاً بعض التجعدات .

ـ ماذا تريدان مني ؟ هل الأمر يتعلق دائماً بأولئك النسوة الثلاث ؟ . . .

توقف عند هذا الحد ، ويداه فوق خاصرتيه مثل قرصان بالغ السطوة . شعرت وكأني قمت بقفزة من الشاطئ الفضي إلى عمق أفريقيا على بعد عشرة آلاف كيلو متر ، أو هي قفزة أخذتني إلى زمن قراصنة جزيرة السلحفاة «تورتو» .

وبركلة من قدمه أرسل كلبه يتدحرج على بضعة أمتار منه .

ـ ادخلا! . . . لاداعي لأن تشويكما الشمس! . . . امض إلى المطبخ يا إيما! . . . واجلبي لنا الويسكي . . .

ـ ثلاثة أقداح ؟

ـ ماذا ؟ . . . طبعاً ثلاثة أقداح!لاحظوا أن فظاظته لم تكن خالية من الظرف . لم يكن بالانسان الفظ المبتذل! يكتشف المرء عنده بعضاً من أصالة عرق .

ـ من هنا . . . وجعلنا نعبر ممراً لايرى المرء فيه شيئاً ، على عكس الضوء المبهر في الخارج . خرجنا من خلف البيت ، حيث هناك شرفة وأراجيح معلقة كبيرة كانت تتدلى بين الأشجار ، وأرائك من القصب الهندي .

استمر السيد هنري ينظر إلينا بمؤخرة عينيه ، مرسلاً دمدمة متابعة :

ـ اجلسا!

كان ذلك أمراً . من هذا المكان يعرف المرء بشكل أفضل تشكيل بنية وربما تاريخ هذه الملكية . لم تكن الغران لانغوستييه تشمل الحصن المعزول فوق صخرة فقط ، بل كانت في الجزيرة جدران ، ومراكز دفاع محصنة ، وخنادق غزاها الدغل .

بنى السيد هنري بينها بيتاً ، ومرائب ،واصطبلات ، كيفمااتفق . أو بالأحرى حسب نزوات الأرض . غرس أشجار الموز . أنبت البطيخ الأصفر والخضار بين الجدران المهدمة ، في كل مكان وجد فيه بعضاً من تربة صالحة .

أراد «ج٧» أن يفتح فمه .

ـ انتظر الويسكي!

ووضع مسدسه فوق المنضدة ، اقترب من بندقية قصيرة مستندة إلى شجرة ، صوب نحو تينة ناضجة كانت تتدلى على بعد مائة متر منا ، وأسقطها بطلقة واحدة .

كانت جلود حيات غير سامة طولها قرابة المترين معلقة بمسامير ومثبتة على لوحات صغيرة ، تجف في الشمس .

وصلت إيما تجرُّ خفيها ، وضعت الويسكي والأقداح وبخاخ الرذاذ على الطاولة .

ـ والثلج ؟ . . .

ـ لم يعد هنالك شيء منه! . . .

نظر إليها كما لو كان مستعداً لخنقها .

ـ اغربي! . . .

صبَّ الأقداح بنفسه نصفها ويسكي ، ونصفها الآخر ماء غازي

ـ في صحتكما . . . مادام ليس لدي الحق في طردكما . . .

ـ أهذه خادمتك ؟

ـ نعم! لقد أخذتها من بيت دعارة في طولون! . . . وابتسم ابتسامة مشرقة . كان يفضل مع ذلك أن يرانا أكثر استنكاراً .

ـ حسناً! أفرغ كأسك . . . وإلا لن أقول لك شيئاً! . . .

انفتحت مصاريع نوافذ في الطابق الأول ، فصاح غاضباً حتى من دون أن ينظر إلى هذا الاتجاه :

ـ أنت ياليلى ، هل تتكرمين وتنامين . . .

أغلقت المصاريع من جديد على عجل .

ـ هذه صديقتنا لعيننا تقيم هنا منذ بضعة أيام ، وتريد أن تسلك مسلك ربات البيوت منذ الآن . . .

تمدد فوق أريكة معلقة ، أشعل سيجارته المغلفة بساق من قصب الذرة .

ـ أعرف ماروره لكما . . . ولو بقيتما في هذا البلد ستسمعان

الكثير من هذا القبيل . . . لاأبالي! أتفهمان . . . هذا أمر أتمسك في الاعلان عنه منذ الآن . . .

ـ عفواً! هذه السيدة التي دعوتها بليلي هل أتت من طولون أيضاً ؟ . . .

ـ هذا ليس من شأنك! . . إنها صديقة . . . وهي سيدة مجتمع تقريباً . . إذاً قالوا لكما أني أعيش هنا كما في غابة عذراء ، وأن أموراً لاتصدق تجري هنا ، ومجون تليق بروما القديمة! . . . لا أجيب بنعم أو لا . . . أنا في بيتي . . . ألبس مايحلو لي ويسرّني جلب امرأتين أو ثلاث إلى اليوم الذي أسأم فيه منهن . . .

ـ عفواً! هل كانت لك علاقة بإيديث بيغلو ؟

ـ أستطيع أن أرد بأن شخصاً مهذباً لايروي هذه الأشياء . . . إنما سيان! لقد أتت إلى هنا . . .

ـ و . . . ؟

يرفع كتفيه . يشرب كأس الويسكي الثاني ، ويدفع كأس «ج٧» أمام صديقي .

ـ في صحتها ، لقد كانت امرأة قصيرة طيبة عصبية قليلاً ، وفاسقة قليلاً ، لكنها كانت رومانسية وكأنها ابنة ستة عشر عاماً!

ـ هل جاءت يوم الحادي عشر من حزيران ؟

ـ إطلاقاً! أعرف إلى أين تريد أن تصل . لاداعي للمكر معي! لقد جاءت إيديث بيغلو إلى هنا وكانت عشيقتي ، إن أعجبتك الكلمة! أما أنا فأقرف منها ، لأنها لاتعني لي شيئاً! وقد جاءت امرأة بائع التحف القديمة أيضاً ، من تلقاء نفسها ، اقسم لك! والسويسرية أيضاً! لاأعرف شيئاً غير ذلك! . . . وإذا كان ينبغي أن تختفي المهووسات والعصابيات والمتلهفات للأحاسيس اللواتي

مررن لحظة عندي ، إني أضمن لك أنك بعيد عن أن يكون عملك انتهى! . . . هذا كل شيء ، أكرر ذلك! . . . إذاً ليدعوني بسلام! . . . جبت العالم كله . . . عملت في الهند لصالح وكالة الاستخبارات ، لأن أمي انكليزية ، كُلفت إبان الحرب مع آخرين باكتشاف قواعد الغواصات الألمانية في البلدان المحايدة في البحر المتوسط ، كوفئت مقابل هذا ببعض الأوسمة .

نظر إلى صدره الكثيف الشعر ، وانفجر ضاحكاً .

ـ أنا بطل أوربا في السباحة ، في سباق الألفي متر . . . أو بالأحرى كنت كذلك . . . لأني بدأت أسمن . . . كلفت من قبل صاحب مصرف باريس بمهمة في ميناء الكاب . . . أخيراً قضيت عاماً في أمريكا الجنوبية . . . أعتقد أن ذلك كله يمنحني الحق في الراحة وأن أنهي أيامي كما يحلو لي أن أنهيها . . . لدي المال . . . لست مديناً لأحد . . . أزرع . . . لاحظا أني أول من جعل شجرة الموز تنبت في الجزيرة ، في حين كان الجميع يسخرون مني في البداية! . . . أصيد الحيونات . . . والأسماك . . . لدي قارب مزود بمحرك ، هناك خلف الصنوبرات ، في شرم أعددته ليكون مرفأ وصببت اسمنته بيدي .

« إن أتت إلى الجزيرة نسوة مختلات عقلياً ليختطفن أو يقتلن ، هن وشأنهن »

« كفانا كلاماً حول هذا الموضوع! ينتظر الناس كلهم بالطبع توقيفي . . . وأنت نفسك أتيت إلى هنا وفي ذهنك أن تنهي الأمور بأسرع وقت » . . .

« حسناً! أتحداك أن تجد أقل تهمة ضدي . . . لذلك من الأفضل ألا نتكلم عن هذا الموضوع بعد الآن . . . »

« يبدو أنك شخص طيب . . . شربت كأسين من الويسكي من دون أن تنبث ببنت شفة . . . اشرب كأساً ثالثاً فأدعوك إلى الغداء ، سيتيح لك هذا التعرف على الأميرال وليلي . . . »

« أما فيما يتعلق بالمفقودات ، اتركوني بسلام! ابحث عنهن! اعثر عليهن أحياء أو موتى! افعل بهن ماشئت! لكن لاتكرر على مسامعي تكراراً ممجاً هذه الحكاية الحمقاء . . . »

« إيما! . . . زجاجة ويسكي أخرى! . . . واذهبي لتخبري الأميرال أن السيدين سيتناولان الغداء معنا! . . . »

نهض . ومضى يتأكد من جفاف جلود الحيات ، أدار فونوغرافاً فوق منضدة صغيرة ، فأخذ يطلق لحن رقصة شعبية .

كان لدي شعور مع ذلك بأنه قلق ، وأن هذه الفظاظة كلها ماكانت إلا لإخفاء حرجه . انتهى به الأمر إلى الاقتراب منا .

ـ أود أن أتصرف على نحو أفضل من ذلك لكي أؤدي واجبي! البيت تحت تصرفكما! سوف يعدون لكما غرفة! اذهبا حيث شئتما! أهذا جيد ؟ . . . تريان أني أترك لكما حرية التصرف! . . . وإذا أردتما البحث عن جثث النساء الثلاث ، سأعيركما البستاني الذي يعمل عندي ليقلب الأرض معكما! . . . ماذا تطلبان أكثر ؟ . . .إذا أردتما مع ذلك أن تعرفا رأيي ، سأقول لكما إن النسوة الثلاث لسن أكثر موتاً مني! ها هو ذا! . . . إليكما الأميرال! اقترب أيها الأميرال لأقدم لك الشرطيين . . .

قلت :

عفواً! لست من الشرطة . . .

ـ بماذا يهمني هذا ؟ وكذلك الأميرال بالنتيجة! . . .

كان الرجل الذي اقترب عجوزاً قصيراً أشيب تماماً ، وجهه

مصاب بالعد الوردي ، دامع العينين ، يرتدي بزة من الفانيلا ، يعتمر قبعة قائد يخت من الجوخ مزينة بشعار الشرف .

ـ قدح من أجل الأميرال ياإيما!

وحيث أن مصاريع النوافذ كانت تتحرك في الطابق الأول :

ـ تستطيعين النزول ياليلي! . . . لاحاجة لأن تلبسي! . . . حيانا العجوز وجلس فوق أريكة ، وانتظر بصبر الكأس الموعودة . كان يبدو مخبولاً تماماً ، وربما بتأثير الكحول .

ـ حسناً! . . . ستفعلان ماشئتما بعد الغداء! . . . إن أردتما الصيد سأعيركما بندقية . . . لكن الصيد المهم هنا ، هو صيد سمك البوري . . . ينبغي معرفة الخلجان الصخرية . . . الماء صاف . . . أطلقا على السمك حين يسبح على وجه الماء . . .

امتلأت كأسي وكأنما بفعل السحر . فأفرغتها مقلداً الآخرين .

بدا لي وكأن الشمس تنفذ من تحت جمجمتي من كل اتجاه . شممت روائح قوية جداً . أعتقد أني كنت أنظر إلى إيما ، هذه الخادمة المهملة الملابس ، ذات الأفخاذ العارية ، نظرات ملحة . أعتقد حتى أن السيد هنري قد وجه غمزة إلى الأميرال .

كنا في أطيب حال ، فوق الأرائك المعلقة ، ماكان علينا إلا أن نمد يدنا لنشرب . وكانت الكؤوس مترعة دائماً .

وصلت ليلي ، جذابة ، جسدها مسكوب في بيجاما بحرية لونها لون سمكة السلامون . تغنجت ، زعمت أنها تفضل احتساء شراب خفيف .

صاح بها هنري :

ـ اصمتي! . . . ابتلعي الويسكي كما يفعل الجميع!

بدأ اختلال التوازن . لم يعد هناك بالنسبة لي حد واضح تماماً بين

الواقع والخيال . على الأقل قبل نهاية الطعام ، الذي قدموا لنا فيه على ما أعتقد باذنجان بالبندورة ، ولحم خروف وسلطة بطيخ أصفر مفكه بمشروبات كحولية متنوعة . . .

بدا «ج٧» شاحباً تماماً . كان جالساً إلى جانب السيد هنري الذي يبدو لي الآن ، بنصف عريه وبشرته المشوية ، وكأنه وحش بري .

همسات مابعد الظهيرة

أول ذكرى واضحة ، هي أني رأيت السيد هنري ينهض فجأة من وراء المنضدة ، ويدير آلية الفونوغراف ، ويرتمي بثقل فوق أريكته المعلقة . أريكة هائلة واسعة مزودة بفراش ووسائد ، تعلوها مظلة مزينة الأكاليل .

أشار إلى سيجارته غير المشتعلة التي كانت بين شفتيه ، فأسرعت المرأة التي تناولت طعام الغداء معنا لتعطيه شعلة .

نظرت إلى الأميرال . كان صامتاً ، لاينظر إلى شيء . كانت سحنته قرميدية اللون ولون عينيه بلون الماء العكر ، شفتاه مرتخيتان ، كان قد بلغ قمة الخبل . إلا أنه وجد الطاقة الضرورية ليترك كرسيه وينوس إلى الأمام والوراء باتجاه داخل البيت .

ثغرة جديدة في ذاكرتي . لابد أني غفوت بعض الدقائق . عندما فتحت عيني كان شعاع الشمس قد بلغ جبيني ، كنت قرمزي اللون ، وكان قميصي ملتصقاً بجلدي .

رأيت أولاً السيد هنري الذي كان نائماً في أرجوحته ، فاتحاً فمه ، يشخر شخيراً قوياً ، وصدره يعلو ويهبط باتساع .

سمعت همسات وانتهى بي الأمر إلى معرفة مصدرها . كان «ج٧» والفتاة التي كان يدعوها هنري بليلي قابعين على انفراد في تعريشة صغيرة من الخضرة . أردت الاقتراب . صرّت الحصى تحت قدمي ، فقالا :

«ششت» . . . وهما يشيران إلى النائم .

لم أعد ثملاً . لكن ظل بي شيء عائم من إبهام ، في جسدي كما في ذهني . جفلت وأوشكت على قلب كرسي لأن عظاية هائلة كانت تحرك العشب على بعد متر من قدمي .

همست ليلي :

أؤكد لك أنه رجل ظريف . فظ قليلاً بالطبع! . . . لكنه ليس خبيثاً . . .

ـ هل تعرفينه منذ وقت بعيد ؟

ـ منذ سنوات . . . أنا ابنة ضابط . . . عانيت المشقات . . . أدير متجراً صغيراً للداتيلا في سان رافائيل . . . رأيت هنري مرات عديدة وهو يقوم بجولات في موانئ الشاطئ كلها . . . لاحظني . . . لكنني ماأردت المجيء إلى هنا قط . . . لاسيما بسبب التجارة . . . أحوال العمل ليست على مايرام الآن .

ـ هل تنوين البقاء فترة طويلة في الغران لانغوستيه ؟

ـ ابتسمت ابتسامة غامضة متعمدة .

ـ من يدري ؟

ـ معروف عنه أنه لايحتفظ بصديقاته وقتاً طويلاً!

ـ لكن النساء أنواع ، أليس كذلك ؟

مازال يتردد على مسامعي ذلك الصوت الخافت ، المتكتم ، على بعد خطوات من الرجل نصف العاري الذي كان مايزال نائماً :

ـ معظمهن عاهرات ، لايردن منه إلا ماله . . . أو أسوأ من ذلك : نساءُ من المجتمع الراقي يبحثن عن المتعة الجسدية ، مهووسات ، مريضات . . . إليك مثلاً ، أنا التي لم يمضِ على وجودي هنا إلا بضعة أيام ، استطعت أن أرتب المنزل . . . هل تصدق أنه يرمي جواربه حالما يظهر فيها ثقب ، وأن الخادمة لاتكلف نفسها حتى عناء رتقها ؟

كانت ابتسامة خفيفة ، خفيفة جداً ، ترتسم على شفتي «ج٧» . بالنسبة لي ، كنت أحاول أن أستنشق جرعات أكبر من الهواء المنعش .

ـ لاأؤكد أنه بطبعه هذا لن يستمر في الجري وراء نساء أخريات . . . لكن ماذا يهم هذا ؟ . . . وبالضبط ، يجب ألا أبدي أية غيرة . . . عندي بعض المدخرات . . . سوف يهدأ خلال بضع سنين . . .

كانت رائعة ، في هذا الجو من الفوضى المبالغ فيها إلى أقصى حد ، في بيجاما الشاطئ التي ترتديها والتي تبرز مفاتنها ، قرب الرجل الذي ينام مع انتفاضات عظيمة لجذعه كثير الشعر ، والطاولة المزدحمة ، والويسكي ، كانت عقلية بورجوازية صغيرة تلك التي كشفت عنها فجأة! لم يبق إلا أن تكلمنا عن البيت الصغير الأبيض ذي المصاريع الخضراء اللابد بين أوراق الشجر!

سألها «ج٧» بلطف :

ـ هل عرفت السيدة بيغلو ؟

ـ شقراء . . . لابد أن أقول لك إنني لاأحب الشقراوات ،

بالطبع هي امرأة ذات ثقافة ، وثروة . . . لكنها كانت تلاحق الرجال مثل . . . مثل . . .

- هل جاءت إلى هنا ؟

- حينها ماكنت قد وصلت بعد . . . حكوا لي عنها . . . كان ذلك بعد الظهر . . . كانت تتنزه . . . عبرت الحاجز ، وطلبت الاذن بزيارة الملكية مؤكدة أن المكان رائع . . . حينذاك استفاد هنري من الفرصة بالطبع . . . واثقاً من أن هذا ماتريده! . . .

- والاثنتان الأخريان ؟

- لم أرهما قط . . . يبدو أن السويسرية كانت سمينة وبشعة ، ومصابة بحروق شمس تظل تنزف . . .

كان ذلك الحديث كله بطرف الشفاه! همهمة! ونظرات قلقة باتجاه الرجل الذي كان نائماً .

- مارأيك بالأميرال ؟

- إنه رجل عجوز! أعتقد أن المستعمرات خبلته! يشرب ، يأكل ، ينام . . . هو صديق هنري . . . لكنه يدفع أجرة إقامته . . . أي أنهما يرتبان أمورهما لتقاسم التكاليف . . .

- هل هو زير نساء أيضاً ؟

ابتسمت ابتسامة احتقار .

- تكفيه إيما! . . . أراهن أنهما معاً في هذه اللحظة . . . يجد الناس كل شيء غامضاً ، لأنهم لايعرفون . . . صدق أن أموراً أسوأ من هنا تجري في القرية ، وفي كل مكان . . . فقط نحن هنا لانختبئ . . .

نجحت نعرة في لسع ظهري عبر نسيج أرجوحتي المعلقة . كنت مرهقاً . أردت الماء المنعش .

أغمضت عيني لأهرب من انعكاس الشمس على مدى نصف دقيقة .

وحينذاك انتفضت ، مقبوض الصدر ، وعمودي الفقري متجلد بقشعريرة . في جهة ما ، قربنا ، في المملكية نفسها ، دوّت صرخة ألم ورعب طويلة .

كان الصوت قريباً ومع ذلك عجزت عن تحديدالجهة التي أتى منها الصوت الممدود الحاد كصوت امرأة مذعورة .

رأيت السيد هنري يفتح عينيه ، ويصيخ بأذنيه ، ويعقد حاجبيه ، وينهض بتثاقل . كان «ج٧» واقفاً هو أيضاً منتظراً صرخة جديدة .

وكانت ليلي فاغرة الفم ، عاجزة عن الاتيان بأية حركة .

لم أسمع في حياتي هذا القدر المتنوع من الأصوات كما في هذه اللحظة بدا لي أن الأعشاب كلها ، والأوراق كلها ، وثمار القطلب كلها ، أخذت تحيا حياة خاصة .

سمع طنين ذبابة على بضعة أمتار ، اونزلاق حيوان زاحف في الدغل ، واصطفاق موج البحر على صخور طرف الجزيرة وحتى هدير مركب ذي محرك غير مرئي ، على بعد أميال في عرض البحر .

كان الهواء ساكناً . مزقته الصرخة . لكنه عاد وجمد من جديد .

مشى السيد هنري أول الجميع باتجاه البندقية المستندة إلى شجرة ، علقها على كتفه العارية ، وأخذ يغذ السير إلى الأمام تبعه «ج٧» . ثم أنا ، ترددت ليلي ، لكنها حين رأت نفسها بعيدة عنا بضعة أمتار ، ركضت لتلحق بنا .

لم يقل السيد هنري بعد شيئاً .

سأل «ج٧» :

ـ أتعتقد أن الصوت من هذه الجهة ؟

رفع كتفيه من دون إجابة . كان يمضي بفشخات كبيرة ، مبعداً بركبته الشجيرات التي لم يكن يشعر بأشواكها وهي تحز ساقيه العاريتين بلون أحمر .

كانت الأرض متعرجة حتى أنه كان يستحيل التوجه . حائط مهدّم سدّ طريقنا . كان لابد من القفز فوقه . طلبت ليلي مساعدتي ومنذ هذه اللحظة ، لم تعد تمشي إلا ممسكة ذراعي لتطمئن .

رأينا قسماً من جدار بين الأشجار . كان السيد هنري يتوقف أحياناً ، وينظر حوله ، يبدو منتظراً نداءً آخر ويتمتم :

ـ اللعنة . . . اللعنة!

عبر عن غضبه بطريقة غريبة : انتهى به الأمر إلى إمساك البندقية من سبطانتها ، بغية استعمالها كهراوة ، لسحق جمجمة عدوه .

سأل «ج٧» بلطف :

ـ هل هي امرأة من صرخ ؟

ـ أحمق! . . .

وسرنا من جديد . جعلتني ضجة في الأجمات أتسمر في أرضي . السيد هنري نفسه رفع بندقيته ليضرب . كان هذا كلبه الخاص الذي برز بين ساقيه ، خافضاً ذنبه وأذنيه .

ـ ابحث ياديك! . . . ابحث! . . .

ولم يبحث ديك! كان يرتجف ، كوّر نفسه عند قدمي سيده وكأنه يطلب حمايته .

ـ لن أدع الأمر يمر هكذا ، اللعنة!

ماكان يستطيع هضم الويسكي والنبيذ كله ، لكن كانت لديه عادة شرب لاتترك أثراً ، إلا ورماً في وجنتيه وانتفاخاً خفيفاً في جفنيه . وصلنا إلى مكان تعقدت طبيعة بنية عمارته على نحو خاص . كان هناك خندق عميق للحصن ، وقطعة من برج مهدم ، وأكوام من الحجارة ، وآلة نقل بخارية جانحة هنا ، الله يعلم متى ، وحتى مقدمة سفينة تالفة تماماً وكانت النباتات تنمو كما في غابة عذراء .

مشيت آخرهم مع ليلي التي ظلت أصابعها ممسكة كمي . أنا من تجمد فجأة ، جاحظ العينين وقد انتابني القلق لاستماعي ، ليس لمايجري حولي ، بل لما كان يجري في داخلي .

ـ هل أنا ميت أم حي ؟ . . .

قد يبدو هذا مضحكاً . ومع ذلك فرض هذا السؤال نفسه على ذهني بصراحة ، لأني بنفس وقت دوي انفجار ، شعرت بصدمة على رأسي وتحركت قبعتي .

ترددت في رفع يدي ولمس جبيني حيث ماكنت أعرف أكان دماً ذاك الذي يسيل أم عرقاً .

اندفع السيد هنري كدب بين الأجمات التي كان يزيحها بجسمه متمتماً بتهديدات . . كان «ج٧» ينظر إليّ وقد شحب لونه كثيراً .

ـ هل جرحت ؟ . . .

ابتسمت ابتسامة صفراء . سحبت قبعتي ولاحظت يدي التي تخضبت بماء أحمر اللون .

ـ أعتقد . . . أني . . .

سيغمى عليّ . وهذا ماالأريده . حاولت الابتسام دائماً بينما كانت مرافقتي تنشج بعصبية .

ـ هذا ليس خطيراً . . .

كان حلقي جافاً وركبتاي تخذلانني . استندت إلى شجرة .

قال ل «ج٧» :

ـ لاتتحرك! . . .

مرر أصابعه بلطف ، عبر شعري ، وربّت بقوة على كتفي .

ـ ليس إلا خدشاً! . . . أربع قطرات من الدم!

أمسك قبعتي اللبادية الرمادية ووجد فيها ثقبين منتظمين ، واحد في الخلف ، وآخر في المقدمة .

ضحكت حينئذ ، متشنجاً ، ضحكت بدموع ، كما لو أنني أبكي . نظرت إلى كل شيء حولي .

ـ أين هو ؟

سمعنا أشجار القطلب ترتعش ، وكذلك أشجار البطم الورقي والأشجار النحيلة والأغصان . هناك رجل حانق يتجول حولنا في كل اتجاه من دون أن نتمكن من رؤيته .

كانت النباتات من الوفرة بحيث لم نكن نلمح البيت ، ولا البحر ، ولا الصخور . ماكنا نستطيع التقدم في اتجاه أو آخر دون أن نعرض أنفسنا لخطر الضياع .

وفجأة سألني السيد هنري وقد كان قربي بصوت أجش :

ـ ألأنت جريح ؟

ـ لا . . . قليلاً . . .

نظر إلى فروة رأسي ، وقبعتي ، ولاك كلمات مبهمة .

استعلم «ج٧» :

- ألم تجد شيئاً ؟

ومرة أخرى رفع كتفيه بمثابة إجابة .

عندما أردت اللحاق بهما اكتشفت أني خائر العزيمة مثل مريض في طور نقاهته ، لم تعد ليلي تمسك بكمي ، كانت تسير بمحاذاة صديقي .

حاولت سرد هذه الأحداث بالدقة الممكنة . لكننا لم نحصل مع ذلك إلا على فكرة خاطئة إن لم نتخيل الديكور . وخاصة إن لم نتصور انطباع العزلة المطلقة الذي يصدر عن غران لاغوستييه ، على مبعدة ثلاثة كيلومترات من الشاطئ الفضي وقرية بوركرول الساحرة المتراصة حول مرفأ يشبه مرافئ البطاقات البريدية .

ومن ثم! لانتخدع لهذه الشمس الثقيلة ، عديمة البشاشة ، التي تجعل الجو سميكاً مثل شراب السكر الدبق ، مليئاً بأصوات لايمكن تهجئتها ، وروائح وارتعاشات لانهائية الدقة .

عدنا باتجاه البيت . حيث ألفينا إيما ، على حالها من البذاءة كما كانت في الصباح ، كانت ترفع الأطباق عن الطاولة المبرقشة بالذباب .

سأل هنري :

- أين الأميرال ؟ . . .

خمنت أن له فكرتي نفسها . ماكان السيد هنري ليستطيع إطلاق النار ، لأنه كان يمشي أمامنا . وكذلك ليلي . لكن العجوز المخبول كان لديه على الأقل متسع من الوقت ليختبئ في مكان ما داخل الأجمات .

- مايزال نائماً . . .

- منذ نهاية الطعام ؟

- إلى حد ما . . .

وبوقاحة شديدة ، أفهمتنا معنى عبارة « إلى حد ما » .

ـ ألم تسمعي شيئاً ؟

ـ لا . . .

ـ ولا صوت عيار ناري ؟

ـ بلى . . . ألم تكن أنت ؟

لاموجب للد هشة بطبيعة الحال من سماع طلقة نارية ، في هذه المملكية حيث ينتقلون والسلاح في يدهم ، وحيث يتسلون بالرماية ، على« فرق الأسماك ، والأرانب ، والعصافير ، وحتى على ثمار التين الناضجة!

ـ لاشيء آخر ؟ صرخة مثلاً ؟

ـ منذ وقت طويل ؟ . . .لا! . . . كنت نائمة أيضاً . . .

منزل جيد حقاً ، تتمتع فيه الخادمة بالقيلولة بعد أن شاطرت الأميرال الفراش ، وحيث كل شيء في حالة فوضى ، وصيحات منتهرة ، وويسكي لاينقطع وأنغام فونوغراف . وحينها أعاد السيد هنري بحركة آلية الابرة على الاسطوانة نفسها ، فاستأنف الاكورديون لحنه الشعبي السوقي .

رأيت السيد هنري ينتصب قبالة « ج٧ » بفظاظة جعلته يبدو وكأنه يريد تفتيته .

ـ ماذا تقول في هذا ؟

« صرخة غامضة . . . رصاصة تخترق قبعة صديقك . . . وكل هذا يجري عندي! . . . مما يقنعك أني التهمت النساء الثلاث حقاً! . . . حسناً! إن كانت لديك قوة احتمال ، أقول لك : انتظر! . . . وأقسم لك أننا سنضحك كثيراً في النهاية . . . هل أعددت غرفة ياإيما ؟

ـ هناك تلك التي في الطابق الأول . . .

ـ حسناً! . . . اذهبي وقولي لجان أن يأتي . . .

صب كأساً من الويسكي ، وأدار الفونوغراف الذي صمت ، نظر إلى ليلي من رأسها إلى قدميها .

ـ وأنت ، ألست خائفة ؟ . . .

ابتسم . لكنها كانت ابتسامة غريبة شرسة أكثر منها بشوشة . لم أر أبداً منذ ذلك الحين شخصاً متوحشاً جميلاً كهذا . كان يحس أنفه المعركة . يحس أنها قد نشبت . يعرف قوته ويعد لضرباته .

وفي الوقت ذاته كان يحتقرنا جميعاً ، يراقبنا بلا رحمة ، ويتلذذ لمعرفته نفسه قادراً ، يتلاعب بعضلاته ، ويزيد قساوة ملامح وجهه .

كان جان ، الذي أتى حافياً دون ضجة ، عجوزاً قصيراً ، نحيلاً ذا لحية مشعثة ، وعيني قرد .

ـ كم بقي لدينا من فخاخ الثعالب ؟

ـ ربما عشرة!

ـ حسناً! شحمها . . . واجلبها إلى المرآب .

وبينما كان جان يبتعد قال لـ «ج٧» :

ـ أترك لك مطلق حرية الحركة . . . لكن عندي دليل على أن شخصاً ما في ملكيتي . سأتخذ الاحتياطات التي يسمح لي القانون باتخاذها . سوف أدلكما على غرفتكما . . . ابقيا فيها بقدر ماشئتما . . .

تمتم بعد ذلك بين أسنانه :

ـ أرجو أن تكون راضياً بعد كل ذلك!

تجولنا أنا و«ج٧» خلال ساعتين بين الأجمات الشائكة وفي مبقلة وبين أنقاض الحصن القديم . لم ينبس ببنت شفة تقريباً .

شاهدنا المرفأ الذي حدثنا عنه السيد هنري : رصيف بطول أربعة أمتار يحمي جوناً صغيراً يرسو فيه قارب .

هوقارب غير باذخ ، نوع من الزوارق بطول ستة أمتار تقريباً مزوّد بشراع مثلث ومحرّك ، يستخدمه معظم صيادي البحر المتوسط .

على الأرض سلال قصب لجراد البحر ، وسمك الحريد ، وكذلك سلال للانقليس ولسمكة أبو مريئة . كانت قطعة فلين طافية فوق الماء . جلبتها برمح معقوف الرأس ، وسحبت حبل القنب المربوط بها وأخرجت من الماء حوضاً كانت تسبح فيه نصف دزينة من سمك البوري وأسماك صغيرة .

كانت الشمس أقل حدة من الظهيرة ، وكانت السماء بلون أزرق كثيف . لكن برودة الهواء لم تتزايد . بل على العكس! ظلّ خانقاً أكثر ، ومشبعاً بالبخار .

قلت :

ـ الخلاصة ، إن كانت النسوة الثلاث مختفيات هنا ، أحياء أو موتى ، يستحيل العثور عليهن تقريباً . . . ينبغي تنظيم حملة تمشيط بمساعدة كتيبة من رجال الشرطة . . .

فوجئت من رؤية الشمس تظلم . بعد لحظة لمحت ، على بعد أقل ما مائتي متر من الشاطئ ، الدارعة البحرية «بيارن» ، كانت تنزلق فوق الماء الحريري . ثم أبعد منها ميزت أربع وحدات بحرية من الصنف نفسه ، ثم نسافات وغواصة نصف غائصة في الماء .

قال «ج٧» :

ـ اسطول طولون ؟ يستخدم الجزء الآخر من الجزيرة الذي يقع إلى يسار القرية والمسمى بلسان «الميدتين» كحقل رمي لوحدات البحر المتوسط .

ـ هل جئت إلى هنا سابقاً ؟

ـ كان ذلك منذ وقت بعيد . . . في خلال ساعات سنعيش في صخب المدافع الضخمة بسلاح البحرية . . . لابد أنهم رفعوا الآن الراية الحمراء فوق عمود الاشارة .

أثارني هذا الأمر . كان كل شيء يثيرني في ذلك اليوم . ربما لأن الغموض كان كثيفاً تماماً من حولنا بحيث كنت أبحث عن تفسيره في الأ حداث الأ كثر غرابة ظاهرياً .

عزف بوق لحناً معيناً ، على إحدى السفن ، عدنا أدرا جنا ببطء .

ماكان هنري يدعوه بالمرآب لم يكن إلا عبارة عن مِكدس حصيد قديم من دون أبواب ، مرتبة فيه أدوات من كل نوع . معدات صيد سمك مختلطة عشوائياً ، مع آليات زراعية .

كان هنا ، محاطاً ، ليس بفخاخ الثعالب بل بمئات الأمتار من الأسلاك الكهربائية كان جان يساعده في فكها . نظر إلينا نظرة قاسية ونحن قادمان . كنت أعرف مقدار فخره بنفسه لمعرفته المهن جميعاً ، ولبنائه مرفأ اسمنتياً بنفسه وكذلك في جعله أشجار الموز تنمو ، ومعرفة بالكهرباء علاوة على ذلك .

سأل بفظاظة :

ـ هل فهمت ؟ أفترض أنك رأيت فخ حيوان مفترس . . . فك حديدي يغلقه قاصم في اللحظة المناسبة . . . قادر على سحق ساق رجل قوي! . . . هناك عشرة منها حول البيت . . . أنصحك أيضاً

ألا تغادره قبل صباح الغد . . . كل سلك يرتبط بسلك إلى جرس كهربائي . . . بمعنى آخر ، عندما يقبض على شخص ما ، سنعلم ذلك جميعاً . . . هاتِ سكينك ياجان . . . أو بالأحرى لا! . . . اذهب واجلب لي الكماشة . . .

ـ ألديك هاتف ؟

ـ لا .

نظر إلى «ج٧» بارتياب .

وصل الهاتف مع ذلك إلى الجزيرة ؟

ـ وماذا في ذلك ؟ . . .

ـ كم يستغرق ذهابك إلى طولون على متن زورقك ؟

ـ ساعتان بالمحرك . . . أما بالشراع فذلك يتعلق بالريح .

ـ لكنك تستطيع الوصول إلى لسان «جيان» البحري في نصف ساعة ؟ . . .

ـ حتى بأقل من هذا! . . . عشرون دقيقة . . . نحن نسير بشكل يختلف عن المركب «كورموران» . . .

أردت رؤيته كيف يربط الأ سلاك بالفخاخ المنصوبة سابقاً والتي لانعرف مواضعها . لكنه كان يماطل ، ربما عن عمد . وانتهى به الأمر أن همس :

ـ حسناً! سأفعل هذا فيما بعد . . . تعالوا لنشرب شيئاً ما . . . نزل الأميرال من غرفته ، ناعس العينين ؛ لكن بزته القطنية لاعيب فيها ، والقبعة مرتبة جيداً فوق شعره الفضي .

ـ هل نمت جيداً ياصاح ؟

ـ نعم!

ـ ويسكي ؟

ـ نعم!

وأنتما ؟ . . . سيعد العشاء بعد قليل عندما أنتهي من عملي . . . هل طهرت جمجمتك على الأقل ، أنت ؟

ـ لاداعي .

ـ افعل ماشئت!

أخافني ذلك . فكرت لاأدري لماذا ، برصاصات مسمومة ، وبالغنغرينا . . . بعد خمس دقائق ، ذهبت إلى إيما في المطبخ وطلبت منها قليلاً من صبغة اليود .

ـ الآن ، إن أردتما نصيحة جيدة تنزها حتى القرية ، ليروا أنكما ماتزالان على قيد الحياة . . . وإلا ، مع الحمقى هناك ، ستكون الشرطة هنا في خلال ساعة تطالب بجثتيكما . . .

ذهبنا إلى هناك ، ليس لهذا السبب وحده ، بل لأننا ماكنا نعرف مانفعله حتى يحين موعد العشاء .

لم يعد هنالك على الشاطئ الفضي إلا الرجل والمرأة التي تتابع إكساب نهديها اللون الذهبي تحت أشعة الشمس . وكان زوجها المستلقي قربها على بطنه غارقاً في قراءة كتاب . كان لون الشفق الوردي يغزو السماء .

ثم ، تحت الصنوبرات كان الظل بارداً تقريباً . وأخيراً ممر شجيرات الميموزا ، وساحة القرية المحاطة بأشجار الأوكاليبتوس ، وعشر مجموعات من الرجال على الأقل يلعبون بالكرات .

هناك بعض الأثواب الفاتحة اللون على شرفة النزل ، وأشخاص ينزلون من «الكورموران» آتين من «جيان» . لم يخطئ «ج٧» : كانت الرايات الحمراء على أعمدتها . اقترب زورق دورية من الساحل ، كثير من جنود البحرية يمسكون بالمراسي بينما كان

ضابط يغادر الزورق . وصوب لسان « ميديس » كانت السماء عاتمة ، كانت السفن الرمادية قد لفظت الكثير من الدخان ، ثابتة بلا حراك ومقدماتها في مهب الريح .

اقترب «ج٧» من قائد درك « هيريس » الذي كان يقود في الجزيرة التحقيق في موضوع المفقودات الثلاث ، قدم نفسه .

ـ هل هناك تمارين رماية هذه الليلة ؟

ـ نعم! طلب ضارب الطبل للتو من الناس أن يفتحوا النوافذ ، لكي يتجنبوا تحطم الزجاج .

ـ ألا تعتقد أن عاصفة . . . ؟

نظر القائد إلى السماء غرباً ثم شرقاً .

ـ ربما . . . هل ستبدأ تحقيقك ؟ . . .

ـ آمل أن أنهيه هذه الليلة . . . هذا يتعلق بكثير من الأشياء .

ـ متى وصلت ؟

-هذا الصباح . . .

فتل القائد شاربه ببعض العصبية .

ـ هل ذهبت إلى غران لانغوستييه ؟ أنت تعرف أن المرء يجب أن يكون حكيماً هناك . . . السيد هنري ليس شخصاً عادياً . . يقال إنه عمل في إدارة المخابرات . . . أخته زوجة أحد كبار تجار العقارات في الشاطئ اللازوردي « كوت دازور» . . . هذا لايعيق طبعاً ، لكنني أقول لك هذا لكي . . .

تقدم رجل نحو محدثنا ماداً يده ، يرتدي بنطالاً من نسيج أبيض وكنزة مخططة وحذاءً رياضياً وقبعة بحار . كان شاباً بني الشعر قوي البنية .

ـ صباح الخير أيها القائد! كيف حالك ؟ . . .

ـ لابأس ياباتيست!

ـ هل جاء هذان السيدان الباريسيان ليعثرا على النسوة الثلاث ؟

لم يستطع القائد منع نفسه من الابتسام ، كان في أعماق نفسه مسروراً من الهجمة! لاسيما أن باتيست كان ينظر إلينا من رأسنا إلى قدمنا أنا و «ج٧» ، بهيئة الحامي!

ـ هل دعوتهما على الأقل لتناول حساء السمك ؟ . . .

ورنت لهجة أهل الجنوب ، كانت مقاطع الحروف كأنها رنين الصنج .

ـ اتركنا ياباتيست! لدينا مانتحدث بشأنه . . .

لمس الآخر قبعته ، وابتعد بخطوة لامبالية .

ـ جسد غريب! صياد ولانراه غالباً يصطاد . . . هو في كل مكان! . . . يعرف كل شيء! . . . يقود يخوت الأغنياء الغرباء ، وعندما لايجد يختاً يقوده ، أعتقد أنه يصطاد مخالفاً . . .

لكن لابد لمن يستطيع إمساكه أن يكون ماكراً! . . . ناهيك عن استنشاره بكل النساء الثريات الغريبات ، اللاتي مرورهن عابر ، وكذلك فتيات البلد . . . خاصة قبل مجيء السيد هنري ، الذي وضعه في امتحان تنافس صعب . . . هل تقبلان دعوتي على العشاء ؟

ـ مستحيل! نحن مدعوان!

ـ في الجزيرة ؟

ـ في غران لانغوستييه . . .

أصبح الجو أزرق اللون ، مع سحابات وردية كبيرة في السماء ، سأل «ج٧» فجأة :

ـ قل لي! هل أميرال قضية « فيناند » وأميرال « بوركرول » هما الشخص نفسه ؟

ـ هل تتذكر هذه الحكاية ؟

ـ تقريباً ، قاطعني إن أخطأت . . . منذ حوالي ست سنوات ، في مدينة نيس ، كان هنالك رجل يدعى فيناند ، تاجر قهوة في أمريكا يعيش حياة باذخة . . . وتحيط به بالطبع آلياً مجموعة من الذين يمتهنون مهنة مساعدة الأغنياء على صرف نقودهم في شاطئ الريفيرا . . . كان يشاهد دائماً بصحبة الأميرال ، الذي يفتقر البوليس الفرنسي إلى معلومات دقيقة عنه .

« الأميرال رجل عجوز هادئ . يسلك سلوكاً محترماً ، لكن عيبه الوحيد أنه بحاجة دائماً إلى صديق يصرف عليه . طفيلي موائد محترف . . . »

قال « ج٧ » هذا بلهجة مترددة لطالب يُسمع درسه .

تمتم الشرطي :

ـ شخص تجب مراقبته على كل حال . بالنسبة لي أعتبره نصاباً متقاعداً . . .

ـ الخلاصة ، خرج السيد فيناند من الكازينو بصحبة الأميرال . شرب الاثنان كالعادة ، وتجولا في الطرقات بأيدٍ متشابكة ، حين تلقيا عند منعطف طريق ضربة هراوة على رأسيهما .

« لم تعثر عليهما الشرطة إلا بعد ساعات وقد سرقت محفظتاهما . حين عودته إلى نزله ، علم السيد فيناند أن شخصاً قد اقتحم غرفته بعد الاعتداء بوقت طويل . وعندما اكتشف الخادم وجوده قام المجرم بطعنه بسكين وفرّ هارباً . . .

ـ هذه هي الحقيقة .

ـ عاد السيد فيناند إلى أمريكا!

ـ نعم . . . وبقي الأميرال . . . تقاعد في غران لانغوستييه ، حيث يتابع اختباله بكميات هائلة من الويسكي . . . لكني أفترض أنك لاتعتقد أن . . .

ـ إطلاقاً! بل أراه جذاباً!

ـ أتريد رأيي ؟ بعد أن عاش متطفلاً على الآخرين ، يلعب الأميرال الآن دوراً معاكساً ، السيد هنري وسيداته يستغلونه بلطف . . .

صافح «ج٧» يد القائد شارداً .

* * *

عندما وصلنا إلى حافة الجزيرة بعد ساعة ، كان الليل قد حلَّ . كان الفونوغراف يعزف لحن غيتار من هاواي . كان السيد هنري ، الذي ارتدى بنطالاً من الفانيلا وقميصاً مفتوح الصدر ، ينتظرنا مدخناً سجائره .

عبر ناموسية الطابق الأول ، كنا نرى غرفة ليلي مضاءة ، كانت تختار ثوباً وهي بقمصيها النسائي .

كان الهواء مشبعاً برائحة الثوم والميموزا والرطوبة الحارة .

نصحنا السيد هنري مشيراً إلى الدغل المحيط :

ـ لاتتجولا كثيراً . الفخاخ منصوبة . . . ويسكي ؟

رجّت أول طلقة زعزعت الجزيرة كلها ، وكأنها غير راسية بمتانة في عمق البحر .

خرج الأميرال من خدره ليطلق زفرة ملل صغيرة . سألت إيما من عتبة المطبخ وهي تمسح يديها بالرداء البيتي :

- هل تأكلان الفاصولياء بلحم الأضلاع ؟

لم يكن على الشرفة ، لمكافحة ذيول الظلام التي كان الليل يلفنا بها والتي كانت تدنو أكثر فأكثر ، إلا مصباح كهربائي صغير مغطى بخرقة وردية اللون .

كنا محبوسين بين جدران الظلمة التي تعج بأصوات مجهولة ، وارتعاشات وصدمات خفيفة ، وزقزقة عصافير وزيز . نظرت في عيني السيد هنري ، للحظة وشعرت به ، قبل أن يشرب الويسكي ، مكدوداً من القلق .

لم يحافظ أحد إلا «ج٧» على هيئة شاب من عائلة محترمة يقوم بزيارة .

فخاخ الثعالب

سوف أحاول أن أكون دقيقاً حسب الامكان ، لأن لأدق التفاصيل أهميتها . كانت الساعة حوالي التاسعة والنصف عندما تركنا المنضدة . كانت وجبة الطعام تتألف من التالي : «بويابس» حساء السمك على الطريقة الريفية ، أضلاع خروف ، فاصولياء خضراء ، جبنة وفاكهة .

تسكعنا قليلاً في فرجة الغابة هذه حيث تتركز حياة غران لانغوستييه . لاشيء خاص أشير إليه عن الحديث عدا أن السيد هنري سأل :

ـ هل تنويان قضاء الليل في غرفتكما ؟

وحيث أن «ج٧» رد بالايجاب ، نظر إلينا بهيئة حالمة :

ـ بالنسبة لي ، أعتقد أني سأنام هنا على الأرجوحة المعلقة يحدث لي هذا غالباً في هذا الفصل . . . هل تشرب الويسكي ياأميرال ؟

أعترف أني ، منذ تلك اللحظة ، شعرت أن هناك أمراً غير

طبيعي . قلق مرضي تقريباً . الحقيقة أن الفكرة راودتني أيضاً بأن السيد هنري لم يتخذ هذا الصوت الصامت الفاتر ، إلا ليخيفنا .

شربت كأس ويسكي كان الأميرال قد دفع به أمامي . اكتفى «ج٧» ببل شفتيه بطرف كأسه ، وسكب باقي السائل فوق الأرض . كانت ليلي حينذاك تغفو فوق كرسي طويل .

حينئذ نهض «ج٧» وقال بلطف :

ـ اسمحوا لنا أن ننام . بالنسبة لي ، أكاد أسقط من النعاس . . . لقد خدر هذا النهار الحار حواسي .

صرخ السيد هنري :

ـ إيما! . . . اصطحبي السيدين إلى غرفتهما .

كانت الغرفة في الطابق الأول ، أعتقد أني ذكرت هذا سابقاً . أشعلت إيما الضوء . غرفة من غير ترف ، لجدران مطلية بالكلس وأثاث حقير . لاحظت أن مصاريع النافذة مفتوحة ، وأنهم بالنتيجة يشاهدوننا تماماً من الخارج . ما إن خرجت إيما قلت ذلك لـ «ج٧» :

ـ حسناً! أغلق المصاريع .

لكي أفعل هذا ، فتحت النافذة . رأيت السيد هنري في مكانه ، تحت الضوء الوردي ، وكان الأميرال يشرب مرتدياً بزته البيضاء ، كانت ليلي نائمة في أريكتها القماشية ، والتفت إلى الوراء . كان «ج٧» يغلق الباب بالمفتاح .

ـ المصاريع منخلية متباعدة القصبات . . . سيروننا رغم كل شيء . . .

ـ أطفئ الضوء . . .

لابد أن ذلك بدا غريباً بالنسبة لناس الشرفة ، لأننا لم نقضِ

وقتاً كافياً في خلع ثيابنا . . . أشعل «ج٧» غليونه الصغير ذا الأنبوب الرفيع

سألت :

ـ هل سنقضي الليل هنا ؟

ملاحظة حمقاء : بقي غليوني على طاولة الحديقة حيث أراه قرب زجاجة الويسكي . ولم يكن لدينا سجائر ، لاأنا ولا هو!

ـ لاأدري .

ـ ألديك خطة ؟

ـ لا! في الحقيقة ، لاأعرف شيئاً بعد .

كان ذلك محبطاً ، لأنه لفظ الكلمات بهدوء . كان يلاحظ الأمر كما لو أنه طبيعي . طلقة مدفع ، تبعها خمس أو ست طلقات أخرى ، جعلتني أنتفض ، لكني تذكرت فوراً أن الأسطول يتجول في لسان «ميديس» .

منذ ذلك الحين كان هذا العنصر فقط إضافة إلى الليل ، صمت طويل ، رشقة ، ثم صمت من جديد . كانت الأضواء الكاشفة تكنس السماء . هدر محرك فوقنا في الظلام .

زمجرت قائلاً بمزاج سيء ، لأن الضوضاء بدت لي وكأنها تمنعني من التركيز :

ـ الطائرات مشاركة!

كنت لاأرى رفيقي . خمنت أنه جالس على حافة السرير .

ـ لاأحد يتحرك في الأسفل ؟

ـ لاأحد . . . لم أرَ قط أحداً يشرب مثل الأميرال .

ـ عندي فضول لمعرفة سبب خوفهم ، أو سبب تظاهرهم بالخوف! . . . لكني أميل بالأحرى للفرضية الأولى . . .

هل يخشون مَنْ أطلق النار على قبعتك ؟ . . .

ـ ألا تعتقد بالأحرى أنه كان يسدد على رأسي ؟

ـ عندما يريد أحدهم قتل شخص ما ، ولا يكون واثقاً من نفسه ، لايسدد على الرأس بل على الصدر . . . إذا كانت قبعتك هي التي أصيبت ، هذا لأن قبعتك كانت هي الهدف . . . ماذا يفعلون ؟

ـ لاشيء . . . إيا مشغولة برفع الأواني عن المائدة . . .

ـ ألا يتكلمون ؟

شققت المصاريع قليلاً . السيد هنري في أرجوحته على مبعدة أقل من خمسة عشر متراً مني . لكن الضوء كان أخفت من أن يتيح لي تمييز التفاصيل .

بدأت أشعر بالنعاس فضلاً عن ذلك . نسبت خمولي إلى الحرارة ، وكنت أتطلع باشتياق لغليوني .

ـ قل لي يا «ج٧» . . . عندما تنتهي من التدخين لن يضيرك أن . . . ودهشت عندما ناولني غليونه بامتعاض .

ـ خذ! لاأعرف لماذا يسبب الدخان لي الغثيان . . .

كانت ليلي نائمة بعمق ، رأسها مائل على كتفها . أما الأميرال ، بعد أن فتش حوله عن مكان أكثر راحة ، انتهى به الأمر بالتوجه إلى البيت . بعد لحظات سمعنا صرير نوابض سرير في مكان ما ، في طابقنا نفسه .

ـ أهو السيد هنري ؟

ـ لا! الأميرال . . .

كان «ج٧» جالساً على حافة السرير . ماكنت أراه . وكنت من وقت لآخر أميز زفرة أو حركة يقوم بها لكي يطرد بعوضة أو

ليحك جسمه . أشعلت غليوني بسرعة كبيرة حانياً جسدي لكي لايرى أحد من الخارج شعلة عود الثقاب . وضعته بعد خمس دقائق على مسند النافذة .

ـ هل هذا تبغ عادي ؟

ـ نعم . . . هو نفسه الذي اشتريته من محطة ليون .

ـ إذاً ، أعتقد أنني أنا الذي لايرغب بالتدخين .

انتهت إيما من ترتيب الصحون . واختفت في المطبخ الذي كان بابه المفتوح يترك مستطيلاً من الضوء ينبثق خارجه .

قلت فجأة وأنا أستدير :

ـ قل لي يا «ج٧»

أجابني بصوت كأنه قادم من بعيد :

ـ نعم ؟

ـ ألاتشعر بشيء ما ، أنت ؟

لم أره ، لكني خمنت أنه يضع يده فوق جبينه ، ويدعك على عينيه قبل أن يتمتم :

ـ ماذا تقول :

ـ ماذا أقول ؟ حسناً! أقول أنهم جعلونا نشرب بالتأكيد مخدراً ما . . . سم أو منوم! . . . بالأحرى منوم . . . انهض ياصديقي .

آه! أي هاجس هذا! كنت متأكداً مما قلته! وكنت واعياً أن دقائق انتباهي معدودة ، وأن الأوان سيفوت من لحظة لأخرى . صراع مرير ، ليس ضد عناصر غريبة ، بل ضد الذات .

ـ لابد أنك محق . . .

كان واقفاً يجس جسمه . ألقى نظرة إلى الخارج ، وقال ملاحظاً بصوت غريب حالم :

ـ هو أيضاً نائم . . .

أشار إلى السيد هنري الفاغر الفم ، الذي كان يشخر شخيراً منتظماً قوياً . كان جسمي لزجاً من التعرق .

ـ هذا ليس كل شيء! ماذا نفعل لكي . . .

ـ نعم! لكي نقاوم . . .

ـ بالطبع تأثيرات الـ . . .

ـ لابد أننا كنا نشبه أناساً تناولوا قدراً طيباً من الحشيش . كان كل شيء غامضاً حولنا . وكنا نحن أنفسنا غامضين أيضاً . كان لدي انطباع بأن جسدي ، الذي صار خفيفاً جداً ، سيطير معلقاً لو أعطيته دفعة صغيرة .

تنهد «ج٧» قائلاً :

ـ لاأدري!

ـ ولا أنا . ولابد أن الأمر هو كما بالنسبة للسموم ، وتوجد إذن لها مضادات

وكرر قائلاً :

ـ مضادات . . .

وتراءت لي عشرة فخاخ للحيوانات المفترسة ، بأسلاكها الكهربائية التي ربما تطلق جرس إنذار شيطاني . تخيلت جيشاً من الأعداء . . . ثم عدواً واحداً منهم يتسلل عبر الدغل . . .

ـ اسمع يا «ج٧» . . .

كان ذلك آخر احتياطي للطاقة لدي . تناولت القارورة التي كانت موجودة فوق طاولة النوم . كانت ماتزال باردة . شربت السائل حتى آخر قطرة ، وبدا لي أن حالي ستتحسن .

ـ دورك! . . . انتظر . . .

كان هنالك ابريق خزفي مليء بالماء . كنا نجهل إن كان ماؤه صالحاً للشرب .

ـ هيا! . . . أنا أمسك الإبريق . . . اشرب بقدر مايمكن أن تستوعب من السائل . . . ربما ليس هذا مفيداً من الناحية العلمية ، لكني أفترض أنه سيمدد المخدر تقريباً . . .

لاأدري كم لتراً من الماء ابتلعنا . كمية هائلة! كانت معدتانا كالقربتين ، وكانت لدينا رغبة لاتقاوم بالاقياء . لاسيما وأن ماء الابريق كان فاتراً بعكس ماء القارورة .

لاحظوا أني أثناء هذا المشهد كله ، لم أنسَ النظر إلى الخارج ، حيث لاحظت السيد هنري وليلي نائمين كليهما . تساءلت :

ـ هل يتظاهران ؟ . . . هل هما مخدران أيضاً ؟ . . .

ثم نظرت إلى أبعد ، كنت أنتظر دائماً شيئاً ما قادماً من الغابة . من نطاق الفخاخ .

كان الديكور بحد ذاته مؤثراً ، لأن المرء يرى من الطابق الأول قسماً كبيراً من البحر المسطح الذي كانت مو جاته الصغيرة تعكس أشعة القمر . من جانب آخر ، كان المرء يحس بالأسطول ودخانه ونيرانه وأبواقه . وكانت رشقة من طلقات المدافع أحياناً تمنعنا من الكلام ، وتثير أعصابي .

وعلى مقربتمنا تماماًمنضدة الحديقة التي ترك فوقها الغطاء والويسكي والأقداح وغليوني . . . أرائك من القصب الهندي في حالة فوضى . . . وليلي فوق كرسيها الطويل بساقيها المطويتين اللتين لاأزال أرى منهما الركبتين الطويلتين جداً والضيقتين .

أخيراً السيد هنري الهائل المتعرق الشاخر ، مسترخياً تماماً في أرجوحته .

ضاعف الضوء الوردي الخافت جداً الغموض عشر مرات . وأخيراً باب المطبخ المفتوح حيث كانت إيما تذهب وترجع مصدرة ضوضاء صحون وحلل طهي .

ـ هل تحسنت ؟

كان «ج٧» يتجنب التمدد من جديد وحتى الجلوس . كان ينظر إلى الخارج هو أيضاً . كان الهواء منعشاً قليلاً .

كانت الضفادع تنق في مستنقع غير مرئي . عندما كانت تصمت صدفة كنت أشعر بقلق عظيم لأني كنت أقول لنفسي لابد أنها شعرت بخطر ما . أجهل إن كان للضفادع إحساس بالخطر . هذه الليلة كنت أؤمن بذلك . كنت مستعداً للاعتقاد بأي شيء .

مثلاً ولاأدري مطلقاً السبب ، كنت أنتظر تكرار سماع صرخة ما بعد الظهيرة ، التي كنت أدعوها في داخلي بصرخة المفقودات . قال لي صاحبي هامساً :

ـ أنا نعسان رغم كل شيء .

ـ وأنا أيضاً . . . كم الساعة ؟

لكن الظلام كان حالكاً . لم نستطع رؤية ساعتي . وذهبت إيما إلى النوم ، الأمر الذي جعلنا نفترض أن الوقت متأخر . . .

ـ انتبه! لم تنم ، هي!

ـ هذا صحيح . . . والأميرال ؟

كانت الخادمة تقيم في الطابق الأرضي ، في الجهة الأخرى من المبنى . رأيت «ج٧» ينسل خارج غرفتنا ، وهذا الأمر لم يطمئني ، لابالنسبة له ولا بالنسبة لي . لاسيما وأنه بقي غائباً مدة ربع ساعة ، كنت أسمع أصواتاً غير واضحة ، احتكاكات وتقصفات .

أرجو ألا يكون قد نام على الطريق ، أو عند الأميرال . . . أو ألا يكون عالقاً في فخ نصب له . . . جعلني كل هذا الماء الذي يملأ معدتي أشعر بالقرف وكان يصعد من وقت إلى آخر إلى بلعومي . حاولت أن أضع غليون «ج٧» في فمي ، ولكن مجرّد رائحة التبغ البارد أزعجتني .

كانت جبهتي مغطاة بقطرات عرق بارد ، دبق .

سمعت صوت المفتش من وراء ظهري :

ـ استفدت من ذلك لأزور غرفته!

ـ هل أشعلت الضوء ؟

ـ لا! لقد تلمست . . . هو نائم بثيابه . . . لم يخلع إلا فردة حذاء واحدة . . .

-هل عثرت على شيء ؟

ـ صور في درج . . . بيد أننا لانستطيع رؤية شيء من دون ضوء . . . كانت الصور في يده . نظر من النافذة ، ولابدّ أنه تردد .

ـ من الأفضل ألا نفعل . . . فمن يدري . . .

ـ بالمحصلة ، ليس هنالك إلا إيما لم تنم بعد . . .

ـ نعم . . . هل تعتقد أنك ستصمد طيلة الليل ؟ . . .

ـ لاأدري . . . يبدو لي أنني أحسن حالاً . . .

هزني فواق ، جعل الدموع تذرف من جفوني .

ـ سأشرب المزيد من الماء . . لو أستطيع الاقياء فقط . . .

مازلنا لايرى أحدنا الآخر . كان وجهانا هالتين لبنيتين في الظلام المطل . وأيدينا مثل دخان متحرك . بدأت بجملة متحررة من الأوهام :

ـ هذه على كل حال قضية من أكثر القضايا إقلاقاً . . .

وطق! جرس إنذار كهربائي! أنا عاجز عن وصف التأثير الذي أحدثه هذا فيّ . تأثير يشبه تأثير العجلة الصغيرة التي يدورها طبيب الأسنان قبل أن يصب فيها الرصاص الذائب .

يستحيل تحديد مصدر الصوت! كان مستمراً! كنت أنتظر الصمت ، لكن لم يعد هناك صمت! ضغطت رغماً عني على كتف «ج٧» .

ـ الفخاخ . . .

ـ نعم . . . إلا إذا كان هذا جرس الهاتف . . .

ـ ليس هنالك هاتف بالبيت . . .

لايرن جرس الهاتف على أية حال بهذه الطريقة ، من دون توقف . لم يتحرك السيد هنري . وكذلك ليلي! ولم يسمع أي صوت في غرفة الأميرال!

ـ ينبغي أن نذهب إلى هناك . . .

ـ أين ؟

نعم ، أين ؟ لانعرف أين نصبت فخاخ الثعالب! وفوق ذلك ، أليس هذا الجرس نفسه فخاً ؟ بالرغم من خدر دماغي وجدت الوقت لأفكر :

ـ ماذا لو كان كل هذا حيلة ؟ وكان النوم الظاهري للسيد هنري حيلة! وكان هذا الجرس حيلة لاجتذابك إلى الخارج . . . فيدبر لنا مكروهاً ولن يستطيع أحد اتهام من في البيت . . .

ـ تعال . . .

أوشكت أن أتدحرج من فوق السلم . وفي الأسفل استغرق إيجاد قبضة الباب مني وقتاً . . . كان الجرس يتابع حز أعصابي .

ـ أأنت مسلح ؟

ـ لدي مسدسي و . . .

حينئذ فكرت :

ـ سيكشفنا ضوء المصباح! بحيث نشكل أهدافاً ممتازة لمن يختبئ في الدغل . . .

بالرغم مني رفعت يدي إلى جمجمتي حيث صادفت قشرة صغيرة كانت قد تشكلت بين الشعر .

ـ ألم تسمع شيئاً ؟

ـ الجرس . . .

ـ لا! شيئاً آخر . . .

ـ ماذا ؟

ـ صوت تنفس . . .

سمعت أو خيل إلي! أقسم على كل حال أنني ميزت لهاثاً . لكن أين ؟ . . .

اقترب «ج٧» من السيد هنري ، نظر إليه عن قرب . رأيته يصوب مسدسه على صدغه دون أن يبعث ذلك رجفة الحياة في وجهه النائم .

استمر الجرس ، مثل ذلك الجرس الذي مايزال يستعمل في صالات العرض السينمائية في الضواحي ليعلن عن بداية الفيلم .

كانت على يسارنا صنوبرات متقاربة . الأرض واضحة المعالم تقريباً ، مغطاة فقط ببساط من الإبر الصهباء .

خطا «ج٧» بعض الخطوات في هذا الاتجاه . تبعته . دمدم صوت شرس :

ـ إن تحركت أحرقتك . . .

ميزت بغموض شكلاً بين الأشجار ، على بعد عشرة أمتار منا .
تابع «ج٧» مسيره . انطلقت رصاصة وهزت أشواك الغابة .

بعدها بلحظة كنا كلانا وراء جذوع الأشجار . لابد أن خمس أو ست دائق قد مرت . بدأت عيوننا تعتاد الظلمة . حينئذ أدركت أن الغريب كان مقرفصاً ، يقوم بجهود عنيفة ليخلص قدمه العالقة في فك حديدي .

قال «ج٧» بهدوء :

- إن تحركت أطلقت النار عليك!

انتصب الرجل . كانت لحظة تردد . أراد «ج٧» التقدم ، لكن طلقة انطلقت ، فنجح في حماية نفسه وراء شجرة . ليس هنالك أية ضجة خلفنا .

قال لي صديقي هامساً :

- اذهب وانظر إن كانت هناك وسيلة لإيقاظ السيد هنري!

عدت إلى الفرجة من جديد ورأيت المصباح المحاط بخرقة وردية لابد أنها كانت تخص قميص امرأة داخلي ، والمنضدة وفوقها الويسكي ، وليلي المتكورة على نفسها .

هززت السيد هنري ، لكنه اكتفى بإطلاق زفرة . كان هنالك ثجاجاً على الطاولة وجهت نافثة على وجهه ، وكان ذلك دون نتيجة .

لم أعرف أين يوجد بئر أو مضخة أو صنبور . كان باب المطبخ مقفلاً بالمفتاح . درت حول المبنى باحثاً عن غرفة إيما . فتحت باباً وكان باب غرفة الملابس . أحسست بنفسي أكثر توازناً . وخطرت لي فكرة عبقرية . فسحبت مصباح إحدى الدراجات .

سألني «ج٧» عندما سمعني قادماً :

ـ ماذا لديك ؟

ـ لدي مسـلاط ضوئي . . . هل ينبغي تصويبه عليه ؟ الآخرون لايستيقظون .

ـ هيا! افعل ذلك!

انطلقت حزمة الضوء مترددة وثبتت على شكل إنساني ، أحاطت به ، رصعته تماماً . ورأينا باتيست ، البحار الذي التقينا به في القرية ، متكوراً على نفسـه كحيوان مفترس ، محاولاً دوماً فتح الفخ حيث علقت إحدى قدميه .

وكان مسدسه على بعد سنتمترات من يده . رفع رأسه . أعماه الضوء فبدا لنا وجهاً حاقداً . تناول سلاحه . أطلق ثلاث رصاصات باتجاه المصباح دون أن يصيبه .

اللص الثالث

أجهل كم كانت الساعة ، لكن النهار كان قد طلع حين استطعت إيقاظ السيد هنري بمعونة دلاء الماء . طلب مني «ج٧» وضع القيود في يديه ، وكانت أول نظرة للسجين على معصميه المقيدين . كانت نظرته ماتزال غائمة ، ثم أصبحت قاسية ، ثم ثبّتها عليّ .

كان الأميرال هو أيضاً ، وكان نائماً على السرير ، مغلول اليدين في الأصفاد ، لكنني لم أتلقَّ تعليمات بإيقاظه .

صرخ عليّ «ج٧» :

ـ اقطع السلك!

حيث أن الجرس كان مايزال يعمل .

أخيراً صرنا نرى المكان . لمحت السلك الكهربائي الذي كان ينساب فوق الأرض وفصلته بضربة سكين .

أعترف أنني تأثرت عندما استطعت رؤية باتيست بوضوح وكعبه عالق في فخ الثعالب . حتى الحيوان الضاري يستحق الشفقة

في وضع كهذا . بالنسبة لإنسان كان المنظر مأساوياً ، لاسيما أن كعبه ، العاري تحت بنطال النسيج الأبيض ، كان ينزف بغزارة .

ـ هل تسلم نفسك ؟

لاجواب .

ـ ارمِ مسدسك إلى هنا . . . وبعدها سنتخلصك . . .

تـردد . انتهى بـه الأمـر إلى الخضوع ، وكلفت بـالذهاب نحوه لكي أساعده ، بينما كان «ج٧» يسدد السلاح نحوه .

بعد لحظات ، أخذت الرجل نحو الفرجة كان يعرج وقد تضخمت ساقه . نظر إلى السيد هنري بحقد . حتى أنه كان على وشك أن يرمي نفسه عليه .

أثناء ذلك ، كان «ج٧» يتفحص على ضوء الصبح الصور التي وجدها عند الأميرال ، صور رجل هاوٍ للتصوير ، معظمها ملتقط في الهند ، وفي كان ، وفي مونت كارلو . ناولني واحدة منها . تمثل رجلين في حديقة ، . تعرفت كازينو نيس في عمق الصور . كان أحد الرجلين الأميرال ، والآخر عجوز أنغلوسكسوني المظهر .

ـ السيد فيناند ، تاجر قهوة من «ديترويت» .

ذكرني هذا بالحديث الذي جرى في بوركرول . كنت لاأزال ظمآن بالرغم من الكميات الخارقة من الماء المبتلع . وبقي نوم ليلي مضنياً . كنت على وشك أن أسب الويسكي ، لكنني فكرت أنه ربما كان مخدراً .

ـ ألديك ماتقوله ياباتيست ؟

ـ لا!

ـ وأنت سيد هنري ؟

ـ لاشيء! إلا أن باتيست سيكذب . . .

عندئذ ضحك «ج٧» ضحكة بشوشة .

ـ أي منكما طعن خادم السيد فيناند .

صمت قلق . ثم ضحكة ساخرة من باتيست .

ـ هو من خطط للعملية كلها . . . لم أكن في نيس آنذاك ، كان لابد له من أن يأتي إلى هنا باحثاً عني . . .

قال لي «ج٧» من دون تردد :

ـ هو ذاك . لابد أنك فهمت الآن . لاحاجة لأن أقول لك إن السيد هنري محتال . . محتال على نطاق واسع ، استخدمته إدارة المخابرات فترة ، لأن إدارات التجسس تحتاج لأناس من هذه الطينة . . يسافر . . يكسب المال ويبدده . . ازداد وزنه قليلاً في سن الأربعين ، حط به المطاف على الشاطئ اللازوردي ، فالتقى بمحتال آخر على شاكلته ، لكنه أكثر دهاءً : هو نفسه الذي يدعى بالأميرال . . يكتفي الأميرال بارتياد الفنادق الفخمة والكازينوهات ، رجل أنيق ، ذو أصالة ، يعيش عالة على حساب هذا الشخص أو ذاك .

«كان كلاهما في الساحل . . . تفاهما . . . وكان هنالك سيد يدعى فيناندذ يعيش ببذخ في نيس . . . غنيٌ غنىً هائلاً . . . يصبح الأميرال من ندمائه . . . ويفكر الاثنان في تجريده من أمواله ، ويضمان من باب الحذر شخصاً ثالثاً إليهما .

«لأنهما رغم كل شيء ، ينفران من تلويث أيديهما . . . يستعلمان في طولون وغيرها . . . فيعلمان أن شخصاً يدعى باتيست من بوركرول ، مستعد لفعل أي شيء مقابل المال . . . فيجذبانه ويشغلانه . . .

«ذات ليلةـ نشرت هذه الحكاية في الصحف ـ كان السيد فيناند في الكازينو . . . شرب بصحبة الأميرال . . . لعب . . .

هل جعل الأميرال رفيقه يعتقد بأن لديه خطة في لعب القمار ناجحة ؟ وجعله يجلب معه مبلغاً معتبراً ، مائتي ألف دولار . . .

«بيد أنه حذره من لعب خطة القمار هذه الليلة ، زاعماً أن اليوم غير مناسب ، أو أي شيء آخر لاأعرفه . . .

«خرجا الساعة الثانية صباحاً ، ثملين كليهما . . . هوجما عند منعطف طريق . واختفت المائتا ألف دولار . . .

«لم يكتفِ اللصوص بالغنيمة! ،هاهم بعد عشر دقائق في النزل . . . يدخلون شقة الأمريكي . . . يعتقدون أنها خالية . . . فيصطدمون بخادمه الذي كان ينتظر سيده ويطعنونه بسكين ، عبثاً على أية ، حال ، لأنهم لايجدون شيئاً تقريباً في حقائب سفره .

«هذه هي القصة . . . ساورت الشرطة الشكوك حول الأميرال . . . لكن السيد فيناندذ الذي عاد إلى وعيه دافع عنه ببسالة . . . هذا أمر شائع! . . . ليس هنالك ماهو أسوأ من عمى الضحايا . . .

الاثنان الآخران لم يعثر لهما على أثر . . . تحفظ القضية . . . ينجو الخادم ويلحق سيده إلى أمريكا . . .

«تلك هي الفكرة التي كانت ماثلة في ذهني مذ دخلت إلى هنا ، وخاصة عندما سمعت عن الأميرال . . . لذلك بحثت على الفور عن اللص الثالث ، لأن هناك قاعدة لااستثناء لها تقريباً تفيد أن المتآمرين ينتهي بهم الأمر دوماً إلى الخصام . . .

«هذا كل شيء تقريباً . . .»

نظرت إليه بدهشة .

ـ كيف ، هذا كل شيء ؟

ـ نعم! أما البقية فهي الحكاية الأبدية نفسها ، باختلاف أن

السيد هنري والأميرال ذكيان . . حكيمان تقريباً ، يتجنبان جرماً إضافياً! . . . . فهما لايعيشان ببذخ! . . .

« جاءا يعيشان هنا! . . . . ليتمتعا على طريقتهما الخاصة ، من دون بذخ مبالغ فيه! . . . . إن أرادا الوحدة فهي متاحة لهما! . . . أما إذا أرادا الاختلاط بالناس والحانات والكازينوهات . . . فساعة واحدة على متن القارب ويصلان إلى الساحل . . . بوركورول معتادة على شذوذ الغرباء .

« وانفجرت الخصومة . . . كان باتيست قبل وصول السيد هنري دون جوان البلد . . . وهاهن النساء أنفسهن يتركنه إلى الغاوي الجديد . . .

« ولكن باتيست خائف . . فهنا تنتشرالأسلحة في كل مكان . . . غران لانغوستييه محمية بشكل جيد .

« إنه من طبقة أخرى . . . فهو خارج من الأوساط الشعبية . . . إنه يهاب السيد هنري . . . ولايجرؤ . . .

« يكتم حقده شهوراً وسنين . . . وأفترض أنه حاول من وقت لآخر ابتزاز مبالغ من عدوه . . .

سوى أن هنالك الثالث . . . الشقي الثالث الذي نهب في العملية . والذي لم يحصل بصفته مجرد أداة تنفيذ بسيطة ، إلا على نصيب يثير السخرية في القسمة .

« السيد هنري يخضع للابتزاز! موقفه قوي! إن باتيست هو من طعن الرجل بالسكين ولاشك . . . وهو من سيذهب إلى سجن الأشغال الشاقة ، بينما سينجو هنري على أية حال بعقوبة بضع سنين في السجن »

« الانتقام ؟ . . . درس باتيست مائة طريقة . . . تخيل أعقد

آليات العمل . . . جاء الصيف . . . وهاهو في غاية السخط . . . تكلل مغامرات السيد هنري النسائية كلها بالنجاح ، يعيش كالباشا . . .

« إذا أدانه في قضية فيناند ، فسينال هو العقاب الأشد . . .

« هل يقتله ؟ . . . في هذا خطورة كبيرة . . .

« لكن ماذا لو ورطه في قضية أخرى!

« هاهي قضية المفقودات الثلاث تحاك خيوطها . . . يتم اختيار ثلاث نساء جئن إلى لانغوستيه سابقاً ، وكن عشيقات عابرات للسيد هنري . . .

« يخفيهن باتيست . . . ويعرف من الذي ستتجه أصابع الاتهام إليه وهذا ماحصل . . .

« النسوة الثلاث لسن بعيدات عن هنا ، سواء كن على قيد الحياة أو متن . . .

« ينتظر باتيست! باتيست عديم الصبر! يستعجل الانتقام . ننزل من القارب ، فيلاحقنا . . .

« لكن لديه فكرة عالية عن مهارة السيد هنري . . . وهو قد رآه قيد العمل . وهو بما عليه من بدائية معجب بالرجل المثقف الذي طاف العالم والذي حفظ كثيراً . . .

« كان غداؤنا في غران لانغوستيه ودياً جداً . حينئذ أطلق باتيست النار على أحدنا بعد أن صرخ صرخة مرعبة من الدغل وهو الذي يعرف أقل متر مربع في الجزيرة أكثر من أي شخص آخر . . . معتقداً أننا بالطبع سنتهم أحد سكان البيت! . . .

« سنقضي ليلتنا في البيت ؟ . . . حسناً! جاء في الليل ليرتكب جريمة تضاف إلى حساب السيد هنري .

« ولكن السيد هنري مرتاب ، فهو يعرف عدوه . . . . وينصب فخاخاً ، لكنه لم يتنبأ بتواطؤ أحد من داخل بيته ، تواطؤ إيما التي وضعت منوماً في حساء السمك .

« كان على الجميع أن يناموا ويموت أحدنا ، فيلقى القبض على السيد هنري في اليوم التالي . . . بعد أن تضخم حسابه! . . .

« أخذ الحقد يعمل عمله ويدفع باتيست إلى تعقيد مخططه أكثر فأكثر إلى حد الإفراط بالتدقيق . . .

« كان على وشك النجاح لولا عقبتان ؛ من حسن حظنا أننا لم ننم . . . وعلقت ساقه في أحد الفخاخ! . . .

« أين النساء ياباتيست ؟

وبمثابة جواب لم ينطق بكلمة! وكذلك السيد هنري . عادت ليلي شيئاً فشيئاً إلى وعيها وكانت تحدق بنا كلنا فزعة في ضوء الصباح الباكر .

ضجة محرك فوق الماء ، إنها إيما تهرب إلى طولون!

ألقت الشرطة القبض عليها بعد بضعة ساعات . وترك الأميرال المخبول من تناول الويسكي على مدى خمسين سنة نفسه ينقاد دون مقاومة محافظاً على وقار يثير الاضطراب في المشاعر نحوه .

تم البحث عن النسوة الثلاث طيلة النهار عبثاً . وفي المساء ركبنا القطار إلى باريس حيث كان « ج٧ » منتظراً في قضية في محكمة الجنايات .

لم أره من جديد إلا بعد خمسة عشر يوماً .

ـ ماحال قضية بوركرول ؟

ـ انتهت . . . تم العثور على النسوة . . .

ـ على قيد الحياة ؟

ـ بل ميتات . . . والأغرب في الأمر أنه لم يتم العثور عليهن إلا بفضل رسالة من مجهول . . . هذه الرسالة كتبها باتيست عشية القبض عليه . . . أرسلها من «جيان» عن طريق صياد ولابد . . . موجهة إلى ثكنة الدرك ، تحوي مخططاً لفران لانغوستييه حيث أشار بصليب أحمر إلى بئر مردوم منذ سنوات . . . بحيث أنه حتى لو اختفى باتيست تلك الليلة ، فسيدان على أية حال السيد هنري . . .

«كانت الجثث في البئر! برهن الفحص الطبي أن المجرم لم يمتثل للرغبة في الانتقام فقط ، بل لنوبة سادية أيضاً . . . تولدت في نفسه شيئاً فشيئاً بقدر مارأى نفسه مبعداً عن دوره كدون جوان من قبل السيد هنري . . .

«وانتهى به الأمر إلى الاعتراف . . . وطلب تخفيف المسؤولية . . . بما يترتب عليه تخفيض عقوبة الموت إلى الأشغال الشاقة المؤبدة . . .»

قلت له ظناً مني أني أمدحه :

ـ نجحت في هذه القضية بفضل استنتاجاتك!

نظر إليّ نظرة إشفاق :

ـ أنت أيضاً . . . روائي إلى هذا الحد ؟ . . . لااستنتاج ، ولاشيء من هذا القبيل . . . رأيت أشخاصاً . . . . تحسستهم بأنفي . . . تذكرت قضايا أخرى . . . وخاصة حكاية كل مجرم فيهم . . .

توقف .

ـ أفضل أن أتوقف ، لأنك ، إن أتابع ، فسوف تحدثني عن علم النفس . . .

ـ بينما هي . . . ؟

ـ مهنة بكل بساطة!

دخلنا إلى حانة بهيجة في ساحة «دوفين» لنتناول طعام الغداء فيها جنباً إلى جنب مع بنائين بصدراتهم ، وكذلك دهانين وسائقين . كان في زاوية رجل مفمّ يقرأ صحيفة لوبيتي باريسيان» .

قال لي «ج٧» :

ـ سأعرفك عليه وقت تناول الحلوى! إنه الرجل الأوسع اطلاعاً في الأدلة القضائية! يبني لك سلسلة الأحداث من منديل عثر عليه في موقع الجريمة ، ويسرد لك حياة القاتل ويعطيك تفاصيل كاملة .

لم أجرؤ على قول شيء ، لأني كنت عاجزاً عن معرفة إن كان يمزح أم لا .

مورسانغ حزيران ١٩٣٠ .

ليلة الدقائق السبع

غفوت سبع دقائق

أتخيل «ج٧» جيداً في مكتب الشرطة القضائية الكبير ، في رصيف «كيه دورفيفر» ، يستلم ملفاً من يد الحاجب .

ـ هناك شيء لكلا . . .

في الملف أصفر اللون قصاصة بسيطة من الورق . ألصقت عليها بتناسب تقريباً كلمات مقصوصة من صحف مختلفة ، بغية تأليف النص التالي :

«سيُقتال ايفان نيكولايفتش موروتزوف في بيته على رصيف نهر السين ، في أسنيير»

مامن توقيع بالطبع . وحروف متفاوتة الحجم . كان ضرورياً بالنسبة لأسماء العلم قطع الأحرف حرفاً حرفاً .

في أسفل الصفحة هناك ملاحظة بالقلم الأحمر ، بيد مدير الشرطة القضائية :

«لإجراء اللازم»

أطلعني «ج٧» على آلاف الرسائل من هذا النوع ، مصنفة

بعناية في مكان واسع يعلوه الغبار . لأنه بعكس مايمكن اعتقاده لاشيء يرمى في سلة المهملات مما يصل إلى مركز قيادة الشرطة .

وشايات مجهولة المرسل ، رسائل من مجانين أو غيورين ، هناك مجموعة من كل أنواع الورق التي يمكن تخيلها .

« لإجراء اللازم »

هذه هي طريقة المركز ، لاشيء يهمل . لكن لاشيء يؤخذ على محمل الجد . وهم لايحاولون خاصة بناء فكرة مسبقة .

لم أكن هناك . لكنني أتخيل المكان مليئاً بدخان الغلايين والسجائر ، والضوء الأخضر المزرق الساقط من نافذة على شكل هلال ، والحركة جيئة وذهاباً .

و« ج٧ » متصلاً هاتفياً « بمصلحة الأدلة القضائية » أغرب الأماكن في الأعلى تحت سقف قصر العدالة .

قاعة لانهاية لها مجهزة بآلاف الرفوف المعدنية . كتب مجلدة كما في المكتبة . ورجال يرتدون صدرات سوداء طويلة .

إنها الأدلة القضائية . وكل إنسان كانت له مشكلة مع القضاء في لحظة معينة من حياته ، له ملفه الخاص في هذه القاعة .

ـ ألو! هل تتفضل وترى إن كان هناك ملف باسم موروتزوف . . .

بعد ثلاث دقائق ليس أكثر ، جاءته الاجابة بكلمة واحدة :

ـ لاشيء!

إذاً لم يتعرض موروتزوف لأية تهمة . لكن ربما له بطاقة معلومات في مكان آخر ، كدائرة الأجانب أو دائرة الآداب ، أو دائرة القمار ؟

يحرر «ج٧» بطاقة معلومات سوف تنقل إلى هذه الدوائر . كان الوقت متأخراً . هذه الليلة ذاتها حدد موعد الجريمة .

ـ ألو! قل للشرطي أوبييه أن ينضم لي الساعة السابعة في أسنيير ، رصيف نهر السين . خدمة ليلية . . .

كان أحدهم إلى جانبه مشغولاً بقضية امرأة قطعت إلى قطع ، وآخر يهتم بقضية ابتزاز حساسة .

ينظر «ج٧» إلى زملائه عبر دخان الغلايين ، ويلقي نظرة إلى الخارج متحرياً الطقس ، يحشر الرسالة في جيبه ويلمس قبعته :

ـ سلامات!

ـ أأنت ذاهب ؟ . . . قضية هامة ؟

ـ لاأدري . . .

التقيت به على الرصيف ، عند جسر «بون نوف» . كان الجو رمادياً ، والطقس بارداً رغم الفصل ، وماكنت أعرف ماأفعله بحالي .

ـ هل ترافقني إلى أسنيير ؟

ـ جريمة ؟

ـ ليس بعد . . . لكن ربما تحدث . . .

كان غامضاً .

قال :

ـ الساعة الآن السابعة! بقي ساعة . . . عجباً! لدينا الوقت لتناول وجبة سريعة .

فتى غريب . يبدو في الحياة العادية أكثر شباباً مما هو في الواقع ، وهو أشد الرجال مرحاً . إلى حد أنه يصعب أخذه على محمل الجد .

إن انهمك في قضية ؟ تغيرت شخصيته . وانغلق على ذاته . والأغرب أنه يصير خجولاً ، وهذا لاينسجم مع الفكرة التي لدينا عن رجل الشرطة إلا قليلاً .

رأيته يستجوب الناس ويكاد يتلعثم .

لاتصنع . لاتبجح بل تدل هيئته على ضجر كما لو أن لديه انطباعاً أنه في غير محله .

بقي وقتاً طويلاً دون أن يحدثني عن القضية . شرب . أكل . راقب بعينيه حركة الناس على الطريق . كان يجيبني بكلمات مقتضبة .

ذهلت في نهاية المطاف حينما لاحظت ، من خلال قراره المفاجئ الذي اتخذه أن عقله لم ينقطع عن العمل المكثف .

كان شرلوك هولمز يحبس نفسه في غرفته ، وينثر أعقاب السجائر على أرضيتها ، ويركز تفكيره في وضعية رومانسية ، عندما لايلجأ إلى كمانه .

عندما يفكر «ج٧» يكتفي بالانخراط في مظاهر الحياة اليومية بقامته التي تشبه قامة صبي كبير حالم قليلاً ، ويحدث له أن يتوقف مع الجماهير قبالة المغنين الجوالين .

ينبغي أن تعتاد على تصرفاته . يميل المرء في البداية إلى اعتباره أحمق .

كان الطقس بارداً ، خاصة بسبب ريح الغرب التي تدخلت في وادي نهر السين . كان المطر يهطل كما لو كنا في تشرين الأول ، في حين أننا في منتصف حزيران ، باستمرار ودون كلل ، قطرات كبيرة كانت تتابع بتواتر منتظم . .

كان المرء لايميز في الظلمة من السماء إلا قبة داكنة ، خضراء

مزرقة قليلاً ، تمر تحتها بسرعة كبيرة أحياناً نتف من الغيوم منخفضة أشد سواداً .

قلت بصوت منخفض :

ـ أتعتقد أنها ليست دعابة ؟

كنا في مرحلة من علاقتنا بدأنا نتخاطب فيها بصيغة المفرد لكن بطريقة خرقاء متقطعة .

لماذا أجهدت نفسي في خفض صوتي ؟ لو صرخت لما تمكن أحد من سماعي إلا محدثي وحده ، بسبب فرقعة المطر وضجة القطارات التي كانت تمر دون انقطاع فوق جسر حديدي على مبعدة مائتي متر منا .

لم يجب «ج٧» رفع كتفيه ففسرت حركته :

ـ ليحدث مايحدث ، ماذا يهمني ؟

لاحظت للمرة الثانية منذ أن قابلته أنه كان متذمراً ، شيء من الملل في عينيه . يداه غائصتان في جيبي معطفه الذي كانت كتفاه تقطران ماء ، بدا غير مبالٍ بشيء .

كان الرصيف مقفراً تماماً . كنا نستند بمرافقنا على الحاجز وكان خلفنا رافد لنهر السين ، ثم جزيرة بور كتلك التي تنتشر أسفل باريس . أبعد منها كان حي سان دينيس بمداخن مصانعه التي تلفظ اللهب ولهاث الآلات الغامضة القوي .

أما أمامنا فعلى العكس منظر لضاحية هادئة مقززة . ورصيف غرست فيه أشجار نحيلة . على امتداد هذا الرصيف بيوت معزولة متفرقة بعضها عن بعض بحدائق صغيرة أو أراضٍ خالية .

كانت النوافذ المضاءة نادرة مسدلة الستائر . كنت مضطرب الأعصاب ، لاأدري لم ، ربما بسبب موقف «ج٧» الغامض ، الذي

لم ينبث ببنت شفة . هل كان نادماً على اصطحابي ؟ كان هو مع ذلك من اقترح عليَّ مرافقته . . .

أثر فيَّ هذا المنظر ، وربما القلق لما سيحدث . نظرت إلى البيت الذي يحمل رقم « ١١ » : بيت شبيه بغيره مؤلف من طابق واحد . كانت واجهته محاطة بعريشة تحمي الحديقة الصغيرة التي لاينمو فيها شيء .

كنت أعلم أن شرطياً كان قد تجول فيها وبعد أن تأكد أن البيت خالٍ تمركز في الخلف .

طمأنني هذا . لم يكن هناك إلا باب واحد . لم يغب عن ناظرينا . وإذا أراد أحد الدخول أو الخروج من النوافذ الخلفية سيمسكه الشرطي حتماً .

ـ هذه الرسالة غريبة رغم كل شيء . . .

لا! ينبغي ألا أنتظر إجابة . كان «ج٧» يراقب منذ لحظات حانة صغيرة ، البقعة الوحيدة المضاءة على الرصيف .

قال لي :

ـ هيا لنلقي نظرة . . .

تبعته . لامانع عندي من شرب شيء ساخن . لكن الأمر لم يكن كذلك .

أتذكر اللافتة : «مطعم فرنسي ـ ميلاني . وهو مطعم للعمال الايطاليين العاملين في المنطقة . طاولات من غير أغطية . خادمات بمآزر وسخة .

هناك خلف الزجاج عجوز ، كان «ج٧» يراقبه .

كان وحيداً وراء طاولته . مكدود الملامح ، يستند بمرفقيه على الطاولة رأسه منحنٍ إلى الأمام ، يتناول طبقاً من السباغيتي ببطء .

كنا في عتمة الرصيف . لايستطيع أحد رؤيتنا عبر الزجاج المغطى بالبخار ، لذلك اقترب صاحبي بحيث لامس رأسه الزجاج .

سألت بنفاد صبر :

ـ من هذا ؟ . . . أهذا هو ؟

اكتفى بالتأوه ، وأومأ بالإيجاب ، ثم توجهنا من جديد نحو مركز مراقبتنا قبالة البيت .

كان المطر يتهمر مدراراً . الدقائق تسيل قطرة قطرة كالماء الذي يتجمع تحت قضبان الحاجز ليسقط أخيراً مثل لآلئ ضخمة عكرة . سمعت صوت صافرة لاأعرف من أي محطة ، وكذلك صفارة مصانع ، ولهاث قطارات . . .

ألم يفرغ الرجل من طعامه ؟ . . . نادراً ماعانيت عذاب الانتظار إلى هذا الحد . . . أدفع الكثير لكي يحصل شيء ما أي شيء . . . قلت لنفسي :

عندما يصل الجنرال ، ينبغي أن . . .

أن ماذا ؟ . . . مازلت واهماً . . . رأيناه يخرج من المطعم الايطالي ويمشي ببطء بظله الحزين على امتداد الرصيف .

بدا وكأنه يكابد مشقة في فتح باب بيته .

كان قلبي يخفق . أردت استباق الحدث . . .

ـ أليس هنالك أحد في البيت حقاً ؟

أجاب «ج٧» بصوت من غير رنين :

ـ لاأحد!

تابعت العجوز بفكري على امتداد الدرج المظلم ، حيث كان لابد أن يتعثر . لاكهرباء في البيت . ألم يصل بعد إلى غرفته في الطابق الأول ؟

بلى! أحدهم يشعل عود ثقاب . تنتقل الشعلة إلى فتيل مصباح نفط . تعاد زجاجة المصباح الى موضعها .

لكننا لانستطيع أن نرى شيئاً . لم نكن على ارتفاع مناسب يجعلنا نرسل طرفنا إلى الغرفة .

قلت رغماً عني :

ـ إنه يخلع ملابسه!

لم نكن نسمع شيئاً . انطفأت الأنوار في المنازل المجاورة . وكذلك بدورها شعلة المصباح .

لاشيء بعدها! مستطيلات سوداء اللون على الواجهة الرمادية المخططة بالمطر .

ـ ماذا سنفعل ؟

ـ ننتظر!

كان نهر السين يهدر خلفنا دائماً ، كنت مبللاً متجمداً . لم أجرؤ على إشعال غليوني خشية أن يكتشف وجودنا .

فككت تشابك ساقي لأشبكهما بالاتجاه المعاكس . ثم قمت بالعملية المعاكسة . بعدها بوقت طويل سمعت دقة الساعة الواحدة .

أتذكر تماماً أن قطاراً نثر رماداً أحمر وهو يمر فوق جسر سكة الحديد .

كان ضوء المقهى الايطالي قد انطفأ ، لكن مداخن المصنع كانت تستمر في بصق النار فوق سان دينيس . نظرت إلى «ج٧» من جديد ، كان جامداً وقدمه في الوحل . وسمعت أيضاً صوت تنفسه المنتظم .

ساعة ونصف! ولاشيء على الرصيف! لاشيء البتة! ولاحتى قط

يأتي ليقطع هذه الرتابة المميتة .

شعرت بعضة ألم في جانبي . وفي الوقت نفسه شق الماء طريقاً تحت ياقة معطفي وأخذ يسيل على امتداد لوحي كتفي .

كانت ذقني على صدري ، أغمضت عيني بصورة آلية . وشعرت بخدر لم أشعر به في حياتي .

دقت الساعة الثانية ، سمعتها بوضوح طبعاً ، لكن بطريقة خاصة وكأنني في حلم .

ثم بعدها مباشرة ، هناك ثقب في الذاكرة كل ماأعرفه هو أنني تمسكت فجأة بالحاجز ، وفي اللحظة ذاتها حين انزلقت قدماي على الصلصال ، كنت أوشك على التمدد فوق الأرض .

فركت عيني ، وتلعثمت قائلاً :

ـ أعتقد أنني غفوت . . .

تعجبت من أن الفجر لم يبزغ بعد . كان لدي انطباع أنني نمت طويلاً . كنت حانقاً على نفسي .

سحبت ساعتي ذات الإطار المضيء . كانت الساعة الثانية وسبع دقائق بالضبط!

لقد غفوت سبع دقائق!

الرصاصة الآتية من مكان ما

ماجرى بقية الليل ، لاأحس أني قادر على قوله . عذاب لانهاية له . مزيج من الخبل والانتظار والحذر والتفكير المكثف ، وبعض الكلمات المتبادلة بفتور أحياناً .

ـ لم يأت القاتل . . .

ـ لاا . . .

ثم صمت ، وأصوات قطارات وآلات سان دينيس وحركة أول عربات ترام في شارع قريب .

كنت أشعر بالمرارة . قلت لنفسي : ليس لي حظ ،وهذه القضية التي أغرتني كثيراً لم تكن إلا دعابة سيئة .

ازداد الطقس برودة حوالي الخامسة صباحاً ، شعرت نفسي أتجمد تحت معطفي الخريفي الخفيف .

أضيئت الحانة عند زاوية الرصيف من جديد . لابد أن فيها أشخاصاً محظوظين يشربون قهوة ساخنة ممزوجة بالروم .

طلع النهار ، لكنه نهار أخضر مزرق ، عديم البهجة . إلى جانبي

كان «ج٧» مرفوع الياقة بوجه لايبين شيء عليه ، كانت قطرات الماء تسيل من فوقه بحرية .

قلت متنهداً :

ـ محاولة فاشلة!

مرت سيارة ، انفتحت نوافذ على بعد مائة متر منا .

ـ هذا مايبدو!

صفر بفمه . بعد لحظات أتى رجل من خلف البيت مبللاً مثلنا ، متعب الوجه من السهر ، متهدل الشارب .

ـ ماذا لديك ياأوبييه ؟

ـ لاشيء ياسيدي!

ـ ألم يتجول أحد هنا ؟

ـ لاشيء البتة!

ـ ألم تنم ؟

ـ آه! سيدي . . .

كنت خائفاً على «ج٧» إلى حد ما . رأيته يوشك على الرجوع إلى محطة الترام الأخيرة .

ثم قرر في اللحظة الأخيرة :

ـ هيا ، لنلقِ نظرة مع ذلك!

عبر الرصيف ، دخل إلى الحديقة في مقدمة البيت دق الباب الذي كان من غير جرس . كنت أمام الحاجز مع الشرطي أوبييه ، ماعدت آمل في شيء ، أي شيء .

دق «ج٧» مرة ثانية ، نظر إلينا . قال بصوت جاف :

ـ تعالا! . .

لم يتحرك أحد داخل البيت رغم أننا زعزعنا بابه .

ـ اكسر القفل!

اختار أوبييه ببعض الحركات الماهرة مفتاحاً عمومياً من حقيبة أدواته ، وجعل لسان القفل يعمل .

كان الممر فقيراً بارداً حزيناً . كانت قبعة مستديرة وحقيبة معلقة على مشجب من الخشب المبروم . كان باب غرفة الطعام مفتوحاً .

قال صاحبي :

ـ إلى الطابق الأول!

ماكان ذلك مفيداً . تبعناه ولاأدري لماذا كان صدري مقبوضاً . لم أعد أفكر قطُّ بالقضية البوليسية المثيرة ، ولا بالفضول .

كنت متأثراً من الفاجعة الدنيئة التي كانت تبدو تنبعث حتى من جدران هذا البيت .

تقدم «ج٧» باستقامة إلى الأمام . كانت حركته جلية . ماكان يضيع الوقت .

فتح باباً وزمجر بين أسنانه :

ـ ويلاً!

لمحت من خلال شق الباب جزءاً من الغرفة ، وقسماً من البساط ذي التعاريق الحمراء وشكلاً ممدّداً ولحية رمادية .

وسمعت صوت صاحبي يدوي دون أن يصدق :

ـ رصاصة في وسط الصدر! . . .

هذه أول مرة أصل فيها الأول إلى مسرح الجريمة قبل الجمهور والشرطة ، وقبل أي إخراج .

جريمة عارية تماماً تقريباً .

كنت فريسة إحساس غريب ، مزيج من الاحترام والفضول والخوف .

كنت أنظر إلى «ج٧» أكثر من الجثة . وحدث ذلك آلياً . لم أدرك الأمر في حينها لكن كان لابد أن أتذكره بعد ذلك .

كان وجهه قد تغير . أصبحت سحنته الملونة عادة داكنة . غارت محاجره . كانت شفتاه خاصة مهدلتين متيبستين .

نادى من أعماق حنجرته :

- أوبييه!

تقدم الشرطي مقطباً وكأنه آتٍ لتلقي التوبيخ :

- اتصل بالرئيس! ليفعل اللازم! أما أنا فسأبقى هنا حتى قدوم النيابة العامة .

- هل ينبغي أن أقول له إنه مات ؟

- بالطبع!

انصرف أوبييه . تفرسني «ج٧» بإلحاح للحظة ، وشعرت أنه يحقد عليّ لحضوري . تجاهلني في الدقائق التي تلت كلياً ، وتصرف كما لوكان وحيداً في البيت .

بقيت واقفاً عند عتبة الغرفة ، لأني لم أنسَ أن على المرء ألا يتجول في مكان الجريمة ، فربما كانت هناك آثارللقاتل .

أما «ج٧» فوقف في وسط الغرفة على بعد متر من الضحية التي اكتفى بلمس وجهها المتجمد ، كان ساكناً ، لكنني أدركت أنه يصور بنظرته أقل تفاصيل المشهد .

كنا في غرفة النوم ، وماكانت كبيرة ، كان منظرها كئيباً كحال البيت كله الذي بني بتكاليف رخيصة ومواد رديئة .

كانت الأرضية مصنوعة من خشب التنوب الصنوبري ، لم

تكنس منذ أيام عديدة ، ويشاهد عليها مئات من أعقاب السجائر ، من تلك الأعقاب الكرتونية التي يحبها الروس .

كان منها الكثير في كل مكان ، حتى على البساط الأحمر الذ ي يمتد عند قدم السرير ، والذي يحمل آثار حروق عديدة .

كان السرير مكشوفاً . والجثة غير بعيدة عنه ، في البيجاما ، كما لو أن صاحبها قتل لحظة ذهابه إلى النوم .

لم أكن قد فكرت في رؤيته بعد ، أجهل السبب ، ربما كنت أشعر بصورة لاواعية أن المأساة تكمن في شيء آخر . فضلت أن أنقش في ذاكرتي معالم الغرفة .

هناك منضدة ليلية عند رأس السرير عليها سماور فضي رائع وفنجانان من الخزف الممتاز ذي الرسوم التأريخية .

كان السماور والفنجانان يتنافران في غناهما مع تفاهة الأغراض الأخرى ، وكأنهما تذكار لأبهة ماضية .

قلت عفوياً :

ـ إنه منفي ، أليس كذلك ؟

لم يجب «ج٧» . لابد أنه لم يسمع . كان كالنابض الشديدالتوتر ، كان جهد التفكير الذي يبذله بالغاً جداً بحيث ظهر على وجهه تعبير ألم .

مرر يده مرتين أو ثلاث على جبينه وأطلق زفرة شبيهة بحشرجة .

أخيراً دخل أوبييه وأعلن :

ـ نُفذ الأمر ياسيدي! سيأتي الرئيس بنفسه مع النيابة . وضعت حارسين على طرفي البيت تحسباً لكل طارئ . . .

وأضاف بفخر حيث أن «ج٧» كان ينظر إليه بفضول :

ـ لأن القاتل لم يستطع الخروج ، أليس هذا صحيحاً ؟ . . . تفحصت أرض الحديقة المبللة ، على أية حال . . . ماكانت هناك آثار أقدام ، إلا تلك العائدة للضحية ولنا . . .

* * *

جعلتني تلك الكلمات أشعر برعشة تسري في ظهري ، فتوغلت غريزياً أكثر في الغرفة ، لكي لاأكون أمام الباب المفتوح ، حيث يمكن أن تصلني عبره رصاصة .

إذ لو كان القاتل بقي في البيت ، فإنه لم يعد في الغرفة دون ريب . لأن هذه الغرفة لاتتيح لرجل الاختباء . ليس فيها زاوية مخفية أو باب سقيفة أو خزانة حائط .

غرفة عادية مستطيلة يدخلها النور من ثلاث نوافذ . كان السرير انجليزياً مزيناً بكرات نحاسية . أمام الجدار اليساري منضدة زينة ووعاء من الخزف وإبريق معدني كبير . أمام الحائط الأيمن خزانة بمرآة .

كانت أريكة وكرسيان تكمل الأثاث المتنافر ، الذي لابد أنه قد اشتري من تجار السلع المستعملة .

مرت عشر دقائق على الأقل ونحن على هذه الحال عندما تنهد «ج٧» وكأنه يجد نفسه :

ـ طبيعي المسدس ليس هنا!

دهشت لعلمي أنه أمضى عشر دقائق على هذه الحال في البحث عن سلاح الجريمة . بالنسبة لي لاحظت من النظرة الأولى أن يدي الجثة كانتا فارغتين وأن ليس هناك مسدس في أي مكان حولها .

لم أعد أجرؤ على التدخل لإبداء الرأي أو إعطاء النصيحة .

كنت أرغب مع ذلك في طرح سؤال ، لكن «ج٧» فكر بفكرتي نفسها فسأل أوبييه :

ـ أنت متأكد أليس كذلك ، متأكد تماماً أن البارحة مساءً ، عندما بدأنا حراستنا لم يكن في البيت أحد ؟

ـ متأكد سيدي! فتشت كل شيء رأساً على عقب! هذا النوع من المباني سهل فحصه ، لأنه مبني وفق نمط متكرر ، ليس فيه مخابئ محتملة كما في الفنادق القديمة .

تمتم صاحبي :

ـ وعاد وحيداً . . . وحيداً تماماً . . .

كنت مستعجلاً من جهتي لتفتيش الأماكن بدقة حيث من المؤكد بالمحاكمة الرياضية أن القاتل مايزال فيها ، وحيث كان يبدو مع ذلك مستحيلاً أنه دخلها . لكن «ج٧» لم يبدُ أنه يشاطرني نفاد صبري .

كان يحدق باستمرار بحدقتين ثابتتين في هذه الغرفة التي ليس لها إلا مخارج أربعة : الباب والنوافذ الثلاث . وكانت هذه مغلقة كلها .

لم يكن هنالك حتى مدفأة حائط ، بل أنبوب مدفأة صاعد من الطابق الأرضي ، يعبر أرضية الغرفة ويمتد على طول أحد الجدران ويخرج مباشرة من السقف .

كانت أذناي في حالة ترقب . كنت أنتظر كل لحظة سماع طقطقة في مكان ما من البيت ، أو صوتاً يكشف وجود القاتل .

أليس قابعاً في زاوية ما في الأسفل ؟ ألم نحاذه ونحن نمر ؟ كان اهتياجي يزداد أكثر فأكثر . ثم كان الانفراج حيث سمعت المفتش يهمس :

ـ هيا لنرى على كل حال! . . .

كان يبدو أنه قررالقيام بهذه المهمة الشكلية آسفاً . لم يسحب مسدسه وهذا ماأدهشني ، لأننا يمكن أن نجد أنفسنا بالمحصلة من لحظة لأخرى وجهاً لوجه مع رجل مسلح .

أعترف أنني حشرت يداً في جيبي وأمسكت بقبضة مسدسي الباردة .

كان ذلك بلا فائدة . لم يعطِ التفتيش نتيجة . لم يكن هناك في الطابق الأرضي إلا قاعةالطعام التي لمحناها حين مررنا ، وغرفة استقبال فارغة ومطبخ .

ونجحنا في إثبات أن أحداً لايختبئ في الطابق الأرضي ، وأن أحداً ماكان يستطيع أن يختبئ فيه!

ومن النوافذ التي ليس لها مصاريع كنا نستطيع رؤية الحارسين اللذين كانا يحرسان في اكفهرار الجو في الخارج دون أن يعرفا بماذا يتعلق الأمر .

خرج «ج٧» من البيت وانحنى لحظة فوق الأرض ، ثم طاف على هذا النحو حول الحديقة . تجنبت اللحاق به لكي لاأزيد من آثارالأقدام في الوحل . عندما عاد كان أكثر غماً .

تذمر قائلاً :

ـ أوبييه معه حق! هذا مااعتقدته! لم يخرج أحد . . .

التفت إليّ غاضباً تقريباً ومخاطباً إياي بلغة الجمع :

ـ هل تفهم ؟ لم يدخل أحد! ولم يخرج أحد! ليس في البيت إلا الميت! ومع ذلك يتعلق الأمر هنا برجل مقتول برصاصة! وهذه الرصاصة أطلقت من مسدس! واختفى المسدس .

ومن دون أن يضيف شيئاً صعد فتبعته . في هذه اللحظة فقط

تفحصت الجثة بانتباه أكبر ، كانت لرجل عمره خمس وخمسون سنة تقريباً .

كانت لحيته كثيفة ، مشذبة على الطريقة الروسية .وشعره رمادياً كثاً مقصوصاً قصيراً على عادة الضباط .

زد على ذلك أن شخصه كله فيه شيء عسكري ، بالرغم من البيجاما التي كان يرتديها . كان واسع الصدر ، ضخم عضلات الأطراف .

رجل جميل . كان المرء يرى بقعة دم وحيدة عند مستوى القلب ، أكبر من قطعة الخمس فرنكات بقليل .

تبرهن وضعية الجثة عي أن الموت كان فورياً .

يتجول «ج٧» الآن في الغرفة جيئة وذهاباً . ويتوقف أحياناً أمام النافذة كما لو أنه ينتظر شيئاً بفارغ الصبر .

سمعنا أخيراً صوت محرك . توقفت سيارة داكنة أمام البيت ثم أخرى ، وسمعت جلبة .

أخيراً دخل أوبييه الغرفة بصحبة ممثل النيابة العامة وطبيب شرعي ورئيس الديوان ومفتش من الأدلة القضائية . وكذلك مديرالشرطة القضائية الذي توجه على الفور نحو «ج٧» حانقاً .

في الخارج اجتذبت السيارات الناس . تعرفوا النائب العام . كان رجال الشرطة يصدون الفضوليين الذين شكلوا صفاً متراصاً جداً .

لم أحضر أبداً كشفاً للنيابة العامة على مكان الجريمة . كنت منفعلاً . كنت أخشى أن يستغرب ممثل النيابة العامة حضوري ويجعلني أخرج . فصغرت نفسي قدر الامكان .

لكن لم يقلق أحد لوجودي . . لابد أنهم ظنوا أني شرطي ثالث .

كان الطبيب الشرعي جاثياً على ركبتيه فوق الأرضية يفحص الجثة . وكان الآخرون يتابعون حركاته ، وينتظرون أن يتكلم .

كانت كلماته الأولى :

ـ موت صاعق ناجم عن ثقب في البطين الأيسر وانفجار الشريان الأبهر . . . ثم حلّ صمت ثقيل . استمر الفحص . وكنا نسمع أصوات التنفس كلها بوضوح .

أخيراً أضاف الطبيب وهو ينهض نافضاً الغبار عن ركبتيه :

ـ يبدو من النظرة الأولى أن الجريمة قد تمت بين الساعة الواحدة والثالثة صباحاً . سوف يؤكد التشريح ذلك بدقة . . .

لماذا بحثت في هذه اللحظة بطرفي عن «ج٧» ؟ لاأدري . وفي الوقت نفسه شعرت بخجل من تصرفي من جهة أخرى . كنت قد فكرت للتو في واقع الأمر أن الجريمة حدثت حوالي الساعة الثانية أي لحظة نمت سبع دقائق .

لم يدخل أحد إلى البيت! ولم يخرج منه أحد! أو بالأحرى استطاع ثلاثة أشخاص فقط الدخول والخروج : «ج٧» والشرطي أوبييه وأنا نفسي!

كنت واثقاً من نفسي ولم أفكر حتى بأوبييه لكن «ج٧» .

غفوت ٧ دقائق! ماذا فعل أثناء ذلك الوقت ؟ كان يستطيع الدخول إلى البيت وإطلاق النار والعودة إلى جانبي نعم كان يستطيع ذلك لو استعجل!

رفعت كتفي . هذا حمق! «ج٧» من الشرطة . أي سبب يجعله يقتل روسياً لايعرفه ؟ لأنه أكد لي أنه لايعرف إيفان نيكولايفيتش موروتزوف!

وكأنها المصادفة التفت في هذه اللحظة بالضبط نائب عام

الجمهورية نحو صاحبي ، وهذا النائب رجل قصير أمرد شديد البرود فضي الشعر .

تقدم المفتش خطوة . كان شاحباً . التقت نظرته بنظرتي ، وتملكني انطباع أن حضوري كان شاقاً عليه . لكنني لم أتحرك . انتظرت جوابه .

ـ قمت بالحراسة طيلة الليل! وكان هناك شرطي متمركز خلف البيت . أؤكد أن أحداً لم يدخل البيت ، وأن أحداً لم يخرج منه . . .

كان ممثل النيابة يلعب بخيط لاأعرف من أين التقطه . كانت يداه ناصعتي البياض ، معتنى بهما ، جافتي الأصابع .

ـ أنت تزعم إذاً أن هذا الرجل انتحر ، واهتم بعد ذلك بإخفاء المسدس . ظل صوته حيادياً من دون سخرية . فكانت سخرية جملته أشد قسوة .

ـ أزعم فقط أن أحداً لم يدخل وأن أحداً لم يخرج . بالاضافة إلى ذلك لم يكن أحد في البيت البارحة مساءً . وكذلك هذا الصباح .

فرفع ممثل النيابة أصابعه مشبّكاً بعضها ببعض بحركة عصبية . التفت نحو مدير الشرطة القضائية :

ـ مارأيك أنت في ذلك ؟

نظر الرئيس إلى مرؤوسه . فردد .

ـ أعتقد أن «ج٧» أثبت حتى الآن جدية وذكاءً . . . القضية غريبة طبعاً . . .

ـ عفواً! ماكانت لتكون غريبة لولا تأكيدات شرطيك . يأتي كل شهر لاجئون من بلدان مختلفة ينتمون إلى منظمات متفاوتة

السرية يقتل بعضهم بعضاً في باريس . . .

كرر «ج٧» قائلاً :

ـ لم يدخل البيت أحد!

لم يتجشم هذه المرة القاضي عناء الرد .

قال لكاتب ديوانه :

ـ لنر مايوجد في الأثاث!

كنت قد حزمت أمري على البقاء وحضور كافة الإجراءات حينما لمحت في الغرفة تفصيلاً صدمني ، كان مع ذلك تفصيلاً تافهاً ، في أنبوب المدفأة الذي يعبر الغرفة من أسفلها إلى أعلاها حفرت كالعادة حفرة مستطيلة يتيح مصراع ذو مزلقة إغلاقها .

كان هذا المصراع مفتوحاً . إذاً كان في الصفيحة ثقب بطول خمسة عشر سنتمتراً وعرض عشرة سنتمترات تقريباً .

ـ ينزل الأنبوب إلى غرفة الطعام! هذا مافكرت به . إذاً لو أن أحداً في تلك الغرفة فبإمكانه بالنتيجة سماع كل مايقال هنا .

كنت واثقاً تقريباً أنني أمسكت القاتل . خرجت دون أن يلحظني أحد وقلت لنفسي إنني أنا ، الشخص البسيط ، ربما سأنجح هنا حيث ارتبك الاختصاصيون بصورة تستحق الشفقة .

كان الأمر جلياً بالنسبة لي! لابد أن هنالك مدفأة حائط في غرفة الطعام .

جهزت مسدسي على الدرج . ووصلت مقبوض الصدر إلى الطابق الأرضي فتحت الباب لكنني شعرت بخيبة أمل! لم يكن هنالك أحد ولامدفأة حائط! بل مدفأة بسيطة مستديرة صغيرة ، كان الأنبوب يصعد منها مباشرة إلى السقف ، وماكان المرء يستطيع أن يخفي فيها حتى قطاً سميناً!

بالمقابل سمعت صوت ممثل النيابة يقول بوضوح :

- . . . يسرني أن تَتعهد رغم كل شيء بالتحقيق لمفتش آخر . . .

شحبت قليلاً لأني تخيلت «ج٧» في الأعلى . . . ثم سمعت وقع خطاه على الدرج . . .

جبن ؟ تحفظ ؟ تجنبت أن أظهرَ له .

رأيته يمشي على الرصيف رافعاً ياقة معطفه مترهل المظهر كرجل قضى ليلته لتوه ، ويتنزه مخموراً في الصباح الباكر .

المهزوم

سأقول الحقيقة ببساطة ، حتى وإن لم تكن جميلة دائماً . وهذا هو السبب على أية حال في ترددي طويلاً بشأن القيام بهذا السرد .

مضى «ج٧» مهزوماً . كنت قد أتيت معه بفضله ، وبفضله وحده عشت الساعات التي عشتها للتو .

هل ينبغي أن أبقى هنا ؟ في البيت أليست قلة ذوق مني أن أترك نفسي تنقاد بدافع الفضول ؟

اعتقدت أن كشف النيابة العامة حدث مؤثر ، بل أبهة إلى حد ما . . . وهاأنا مشوش أكثر فأكثر .

جرى الكشف دون إثارة مسرحية .

كانت الفوضى تعم المكان . أدراج مفتوحة على آخرها ، وقصاصات ورق مبعثرة في كل مكان ، وكذلك بياضات وأغراض صغيرة متنوعة . التقط اختصاصيو الأدلة الجنائية صوراً ، في حين كانت السلطات في زاوية تنتظر ببعض نفاد صبر نهاية الإجراءات الشكلية .

رمقني أحدهم ، بنظرة : كانت تلك نظرة مدير الشرطة القضائية . تملكني الذعر فغادرت المكان غير فخور بنفسي ، بل متقززاً قليلاً . وحثثت الخطى في الطريق بأكثر ماأستطيع لكي ألحقه ، لكني لم أنجح .

شعرت أني مذنب بحقه . لم يكن لدي ماألومه عليه . لم يقصر تجاهي في شيء ، بل على العكس! وإذا كانت الليلة مرهقة فلا يقع اللوم إلا عليَّ ، لأني غالباً ماألححت على مرافقته في خلال تحقيقاته .

أحقد عليه مع ذلك! لفظة حقد ليست دقيقة . كنت أشعر ببعض الغضب تجاهه ، من دون أن أفسر لنفسي السبب .

هكذا هي الحال مع الأصدقاء الحميمين الذين نكن لهم أخلص الود .

فجأة ومن دون سبب ننظر إليهم باستياء . نحاكمهم بشدة . ونكتشف فيهم عيوباً لم نتذمر منها قط .

قلت لنفسي : أنا مخطئ! أنا متعب ، جعلني التعب متذمراً وظالماً! عندما أراه سأعتذر له .

ومع ذلك كنت أستمر دون علم مني في التفكير فيه بحقد .

ـ غفوت سبع دقائق . . .

ألن تفارق ذهني هذه الجملة الملعونة ، التي لاتعني شيئاً البتة ؟

كنت لاأزال أكررها بيني وبين نفسي وأنا أدخل شقتي .

خرجت من الحمام بعد الساعة الحادية عشرة بقليل ، شعرت بسرور لارتداء ملابس جافة وبنطال مكوي جيداً .

تظاهرت إزاء نفسي بأنني أخرج من دون وجهة محددة بحثاً عن صديق لتناول فاتح الشهية ، لكنني كنت أعرف تماماً إلى أين ستقودني خطواتي .

وفي الواقع كنت أرتقي قبل دقائق من الظهر درج رصيف « كيه دورفيفر » .

قرعت باب مكتب « ج٧ » . سمعت بوضوح خفيف حركة أوراق ، خمنت أن زيارتي تزعج أحداً ما ، وأن أحدهم يعد نفسه لاستقبالي .

ـ ادخل! . . .

لم يغير ملابسه بعد! كان معطفه المبلل معلقاً على المشجب . بزته مبللة وربطة عنقه باتت أشبه بخيط مبروم .

كان يستند بمرفقيه على الطاولة ، وأمامه أوراق وصور مبعثرة .

فعلت مايفعله المرء حين يزور مريضاً . تصنعت المزاج الطيب ورفعت نبرة صوتي درجة . قلت ممازحاً حينما لاحظت طرف صورة نسائية منزلقة تحت الأخريات :

ـ أي الصور كنت تشاهد ؟

صوب نحوي طرفاً حزيناً لائماً . لم يقل شيئاً .

ـ هيا! أراهن أنها صورة امرأة وأن . . .

ـ ربما لاتعرف الخبر .

أخ! سيكلمني عن الاهانة التي وجهها له ممثل النيابة .

ـ ياإلهي ، أنا . . .

ـ لايمكنك أن تكون على اطلاع . . . لقد كتبت استقالتي للتو . . .

ـ ماذا! . . أنت مجنون ؟ . . كل هذا لأن نائباً متسلطاً قال لك . . .

ـ كيف يمكنك أن تعرف ماقاله لي ؟

ـ كنت . . . سوف . . . سوف أشرح .

لم يكن في نظرته أي ود! كانت جبهته قاسية ، وحاجباه معقودين . ارتبكت .

قال بملل :

ـ لايهم ، على أية حال! لاشيء يثنيني عن قراري . . . أنا على وشك تصنيف ملف موروتزوف لكي أسلمه للمفتش المكلف بالتحقيق من الآن فصاعداً

ـ كيف ؟ . . . هل هنالك ملف ؟ . . . لكنك قلت لي البارحة إنك لاتعرف شيئاً عن . . .

لماذا بحق الشيطان ذلك الحذر ، الذي يولد في داخلي عند أقل فرصة ؟

ـ هناك بعض الأوراق والصور قدمتها لنا دائرة الأجانب للتو ، هذا أولاً . . . ثم وثائق عثرت عليها النيابة العامة في أسنيير ، أراد الرئيس أن أطلع عليها حيث أن علي أن أكتب تقريراً .

انحنيت لكي أتمالك نفسي ، أكثر مني بدافع الفضول ، لأنني كنت أشعر أن الحرج لاينفك ينمو بيننا .

صدمتني أولاً صورتان متشابهتان : موروتزوف بزي الجنرال البهي في الجيش الامبراطوري الروسي ، صورة من أمام وأخرى من جانب .

الرجل نفسه في مكان آخر مصور كسائح ، ربما قبل الحرب ، على الشاطئ اللازوردي .

لابد أن «ج٧» قد تفحصها على مهله قبل وصولي ، دفع بها إلي واحدة إثر واحدة بلا مبالاة .

قال وهو يريني صورة فوتوغرافية تحمل علامة مؤسسة تصوير باريسية رفيعة .

ـ صورة شخصية لرجل من المجتمع الراقي ، من النوع الفني كما يقال عنها .

لكنني فضلت صور الهواة التي تصور الجنرال بلباسه أمام طاولة القمار .

ـ وي! هل كان لاعب قمار ؟

ـ مثل الروس جميعهم!

كنت أتحايل . أحاول بلوغ صورة المرأة التي كان صاحبي يبذل مافي وسعه لإخفائها تحت أوراق أخرى .

كانت إحدى هذه الأوراق بوليصة تأمين على الحياة .

ـ لمصلحة من ؟

ـ لمصلحة ابنته . . .

ـ آه! لديه ابنة . . .

تابعت ببصري الصورة الشبحية . هل أمن على حياته بمبلغ ضخم ؟

ـ لا! مائتي ألف فرنك . . .

ـ منذ وقت بعيد ؟

ـ ثلاثة أشهر . . .

ـ مهلاً ! مهلاً ! لابد أنه قد دفع أقساط تأمين عالية ! وهو رجل يعيش حياة بائسة . . . كم وجدوا لديه ؟

ـ ثلاث فرنكات ونصف ، بالاضافة إلى إقرارات بالدين من بيت الرهن . . .

ـ أفترض أنك ستتابع التحقيق رغم كل شيء ، بشكل غير رسمي ، ليس إلا للوصول إلى الحقيقة قبل المفتش الذي سيعين

ـ ولاحتى هذا!

ـ أنت تبالغ! أنا متأكد أن استقالتك مجرد تصرف شكلي .

رفع كتفيه بلا مبالاة . لمست يده جبينه المجعد فاغتنمت الفرصة لأتناول الصورة .

قلت بحماقة :

ـ مهلاً! مهلاً!

أليس هذا مايمكن للمرء أن يقوله في حالة كهذه ؟ كانت الصورة صورة امرأة فتية ، أو بالأحرى فتاة شابة ، كانت أكثر من مجرد جميلة بكثير .

كيف أعبر ؟ آسرة ؟ الكلمة تافهة! لنتخيل إحدى تلك النساء اللاتي يلفتن أنظارنا حتماً واللاتي يظل المتسكع يحلم بهن بعد ساعة من لقائهن! إحدى تلك النساء اللاتي يجعلنك تؤمن بوجود المرأة المثالية ، بالحب كما غناه الشعراء . . .

ـ هل هذه هي الفتاة موضوع حديثنا ؟ .

تمتم بنعم غامضة .

ـ هل عرفتها قبلاً ؟

شعرت بأنه يشيح ببصره عني ، كنت غاضباً تماماً بحيث أني ودون أن أعرف السبب ، رنت في رأسي عبارة :

ـ غفوت سبع دقائق . . .

أي علاقة يمكن أن تكون لهذا الأمر مع هذه الصور المتفرقة ، مع هذه الوثائق التي كانت كل مابقي من حياة مورتزوف ، جنرال الامبراطورية السابق ، وزبون فنادق نيس وكان الفخمة ، وكازينوهات مونت كارلو ، والزبون الحديث للمطعم الحديث الفرنسي ـ الميلاني الحقير ، ومستأجر بيت في أسنيير ، الذي اغتيل الليلة الماضية من قبل مجهول غيرمرئي ؟ . . .

قال « ج٧ » ببطء :

ـ أريد أن أبقى وحيداً! مازال لدي عمل ، وأتمسك بتسليم تقريري في أسرع وقت ممكن . . .

ـ أوتتأمل هذا الجمال من جديد ؟

شعرت في الواقع أنه سينزعج . نهض بحيوية .

لكن دخل مدير الشرطة القضائية . كان يمسك في يده ورقة . نظر إلى الطفيلي الذي هو أنا بتردد .

ـ أليس هذا صديقك الذي كان معك تلك الليلة ؟

ـ بلى . . .

ـ ماذا تعني هذه الرسالة . . . هل أنت موجوع ؟ . . .

-لا! أطلب إجازة لحاجة شخصية ريثما تقبل استقالتي . . .

نظر إلينا المدير ، وأطلق زفرة طويلة .

ـ أنت نزق ياصغيري . . سيكون الأمر على مايرام بالنسبة لك .

لم يكن مكاني هنا .

تمتمت قائلاً :

ـ ينبغي أن أمضي .

نظرت إلى صاحبي . كنت أريد أن أبدي له الود والتشجيع . لكن ما العمل ؟ رمقني بنظرة باردة عنيدة حاقدة .

ـ إلى اللقاء . . .

ماكدت أصل الدرج حتى سمعت مدير الشرطة القضائية يخرج من مكتب المفتش . وكان لايزال يحمل في يده رسالة الاستقالة .

إذاً« ج٧ »مصرٌ على رأيه!

لاأريد أن أزعم أن هذه القضية أثرت فيّ إلى حد جعلني أمتنع

عن الشراب والطعام . نادراً ماتقتلعنا أشد المآسي تأثيراً فينا عن مشاغلنا اليومية الصغيرة .

بقي لدي بعض الضغينة جراء هذه القضية ودغدغة مزعجة إجمالاً لشك كنت أرفض النطق به بصوتٍ عالٍ .

أسخطتني صحف اليوم التالي حينما نشرت :

جريمة في أسنيير .

«ليلة الخميس ، قتل المدعو إيفان نيكولايفيتش مورتزوف في بيته الذي يسكنه وحده . في رصيف السين على يد مجهول . تفترض الشرطة أن الأمر يتعلق بانتقام سياسي» .

نقطة ، هذا كل شيء!

لم يحتج «ج٧» ، ولم يرسل تصحيحات إلى الصحيفة!

تخيلت نفسي معه هناك ، تحت المطر ، طيلة الليل . . تخيلت الجنرال في الحانة الايطالية . . ثم مصباحه الذي انطفأ في الطابق الأول!

ـ غفوت سبع دقائق . . .

بعد ثلاثة أيام ، اتصلت بقيادة الشرطة .

ـ آلو! هلاّ تفضلتم بإعطائي «ج٧» .

ـ غائب!

ـ ألا تعرفون متى يرجع ؟

ـ ليس قبل انقضاء مدة طويلة . . .

مرت ثمانية أيام . اتصلت به في منزله الخاص . جعلتني مدبرة المنزل أنتظر . ثم عادت تقول لي ان صديقي ليس هنا .

لقد جعلتني أنتظر! إذاً كان هنا! إذاً يفضل ألا يلتقي بي ، ولا حتى أن يكلمني بالهاتف . لم تعد الصحف تنشر شيئاً عن جريمة «أسنيير» الشهيرة .

شغلتني قضايا أخرى .

ذات مساء ، بعد شهرتقريباً ، قال لي صديق من بين جملة أشياء :

ـ ماأخبار « ج٧ » ؟ . . . أمايزال غارقاً في حبه الكبير ؟

ـ كيف ؟

ـ ألاتعرف ؟ . . . لم يعد يراه أحد . . .

أولم يعد يرى أحداً . . . أو بدقة لم يعد يرى إلا شخصاً واحداً ، رؤيته والحق يقال أمتع من رؤيتنا أنا وأنت . . .

ارتعشت تفاحة آدم في حلقي .

قلت :

ـ فتاة ؟

ـ رائعة! التقى بهما دوبري . . .

ـ روسية ؟

ـ هذا مالاأعرف عنه شيئاً! . . . قال لي دوبري إن لها شكلاً غريباً مميزاً جداً . . .

أقلقني الأمر طيلة عشرة أيام . لكن كلما مر الزمن ازداد حيز الحكاية في حياتي . وأصبحت بالنسبة لي هاجساً .

بلغ مني الأمر حد الاعتراف . لأن هذا هو ماينبغي . سردت هنا على أية حال بعض الوقائع الصغيرة المزعجة جداً بالنسبة لكبريائي .

وقمت بالاختيار ، في الصفحة السادسة من صحيفة :

« السيد لودوك ، مفتش سابق في قوى الأمن . تعقب وتحقيقات من كل نوع . السرية مضمونة » .

كان رجلاً خمسينياً ضخم الشاربين ، من عصر غير عصر « ج٧ » .

استقبلني ببساطة ، استمع إليّ وهو يغمز بعينيه ، ودّعني عند العتبة مع تربيتات على الكتف :

ـ اعتمد عليّ! . . . ثمان وأربعون ساعة لاأطلب أكثر .

ـ ينبغي ألا يشك في شيء خاصة ، أليس كذلك ؟ . . .

بدا لي تكتم هذا الرجل الساذج البشوش مستحيلاً ، بحيث كنت مستعداً لفعل أي شيء لكي أسحب القضية . لكن كيف أتصرف ؟ ماذا أقول له ؟

لم أكن في حياتي مستاءً من نفسي إلى هذا الحد كما في هذا المساء ، وحلمت أحلاماً تناوب فيها ظهور «ج٧» مع صديقي الجديد السيد لودوك .

أليست هذه خيانة حقيقية تلك التي ورطت نفسي بها ؟ خيانة لن يغفرها لي أحد! شيء بشع!

*   *   *

بدأ كل شيء من ليلة أستيير الشهيرة . ماكان مجرد سخط . ولاذرة شك! شعور تأصل فيّ وغا بشكل مرعب .

فات أوان التراجع الآن . ماذا قلت ؟ لكي أكون صادقاً أعترف أني ماأردت التراجع ، كنت أريد أن أعرف!

ووصلت إلى حد قلت فيه لنفسي :

ـ بشرط أن أكون مصيباً .

أماكان هذا عذري الوحيد ؟

وأسوأ مافي الأمر أنني ماكنت لأستطيع أن أقول لماذا تصرفت على هذا النحو .

سونيا

مازالت التقارير كلها أمامي . السيد لودوك في الواقع عدو للآلة الكاتبة .بالمقابل ، لابد أن لديه ناسخاً خطه أجمل خط انكليزي أعرفه إلى الآن .

كانت هنالك صفحات وصفحات بمقياس وزاري . لاأقتطف منها إلا بعض الفقرات تاركاً جانباً كل التفاصيل غير المفيدة ، وأذكر فقط أن الجنرال قتل ليلة ٢٠ حزيران .

كان ذلك إذاً يوم ٢٠ حزيران عندما تركت «ج٧» في رصيف «كيه دورفيفر» وجهاً لوجه مع كومة الصور .

ظهر «ج٧» في ٢٩ حزيران ، حسب معلومات السيد لودوك ، برفقة ابنة عم له في مؤسسة «مادلين وأخواتها» حيث تعمل سونيا الشابة موظفة أولى .

نسخت جزءاً من الوثيقة :

«المستجوبة الآنسة جيرمين زميلة سونيا . أقيم عرض للأزياء . لاحظ الجميع حضور «ج٧» بالرغم من جهوده لكي يبقى متستراً .

لاحظ الناس كلهم أنه حاول المستحيل ليقترب من سونيا ويكلمها . داعبت االبائعات بعدها الفتاة بشأن هذا الموضوع .

« وقت الانصراف ، نحو الساعة السابعة رأت الآنسة جيرمين « ج٧ » يتجول في الشارع . وافترضت أنه لاحق سونيا إلى باب بيتها . . . »

تجاوزتُ تعليقات السيد لودوك واستنتاجاته لأصل إلى وثيقة أخرى .

« المستجوب السيد بول ، نادل المطعم « شابون دارجان » ، وهو مطعم شارع مونتين الراقي ، حيث رأى زملاء له سونيا تدخل بصحبة رجل أنيق .

« شاهد السيد بول سونيا مرات عديدة . صاحبها الأنيق ليس إلا صديق أبيها . يعتقد النادل أن لاشيء آخر غير الصداقة يربط بينهما . كانت تصرفاتهما لائقة على كل حال .

« يوم ٢ تموز ، كانت سونيا ورفيقها يتناولان طعام الغداء معاً عندما دخل « ج٧ » . صديقان قديمان . وتابعوا الطعام ثلاثتهم . غادر الصديق وبقي « ج٧ » وحيداً مع الفتاة .

« يوم ٦ تموز ، عاد وتناول العشاء معها . كان عند النادل انطباع بأنهما تبادلا غزلاً مبالغاً فيه » .

· البقية ليست إلا ثرثرة . أراد السيد لودوك الإكثارمنها طمعاً في مالي ، وهو ليس بخيلاً في أوراقه .

لم أحفظ من كل هذا الركام إلا شيئاً : كانت سونيا ابنة الجنرال مورتزوف موظفة درجة أولى في دار خياطة .

كنت قد تركت « ج٧ » غداة موت الجنرال وجهاً لوجه مع صورتها الشخصية ، بعد بضعة أيام دخل إلى دار الخياطة بحجة

مرافقة ابنة عم له ، وهكذا كان يتقرب من الفتاة ، يحدثها ، ينتظرها في الشارع وربما يلاحقها كما يفعل طلاب المدارس .

بعد بضعة أيام عندما علم أنها في «شابون دارجان» ذهب إلى هناك والتقى بصديق وكأن الأمر معجزة ، فأتاح له هذا الصديق معرفة أوسع بسوتيا .

الفصل الأخير : عاد إلى المطعم نفسه وحيداً مع الفتاة . هذا كل شيء! لم يكن بالكثير . ازداد انزعاجي مع ذلك بدلاً من أن يتبدد .

فتشت عن حجج مقنعة لأطمئن نفسي . قلت في داخلي :

ـ أي شيء طبيعي وعادي أكثر من هذا! . . . أثرت فيه صورة . . كثير من الناس يقعون في الحب بمجرد رؤية صورة . . . ثم حاول إقامة تعارف أوسع مع صاحبة الصورة . . . وهو محظوظ على أية حال لأنه يبدو قد نجح ، هذا إذا صدقنا على الأقل ماقاله السيد بول . . .

لكن لمَ الاستقالة ؟ ولماذا يتهرب مني بهذا العناد ؟ ولماذا كل هذه التصرفات الغريبة التي لاحظتها عند زيارتي لرصيف «كيه دورفيفر» ؟ وخاصة لماذا توقف عن البحث عن قاتل موروتزوف ؟

نعم! هذا السؤال الأخير خاصة! إن كان أبعد عن التحقيق فذلك سبب إضافي طبعاً يحثه على كشف القضية مهما كلف الأمر!

لم أنخرط في سلك الشرطة في حياتي . . . لكن يبدو لي لو أنني في حالة مشابهة لما كنت ترددت . . .

ـ آه! لست واثقاً بي سيدي النائب! حسناً! سنرى . . .

لكن «ج٧» لم يكترث إطلاقاً باللغز الأشد تشويقاً من بين الألغاز التي يمكن تخيلها .

كان شئ واحد يشغله ، ابنة الضحية ، سونيا الفاتنة . . .
وكان يجري وراءها ويدعوها إلى تناول وجبات العشاء الفاخرة في شارع مونتين . . .

أهو الحب ؟

أجبت :

ـ لا! رجل مثله ليس مخبولاً إلى هذا الحد! كان «ج٧» شغوفاً بمهنته دائماً . . . هنالك شيء آخر . . .

وهذا الصوت اللعين في داخلي :

ـ غفوت ٧ دقائق . . .

هذا لايفسر شيئاً ، وقد يفسر أشياء أخرى رهيبة .

أما كان «ج٧» يعرف الآنسة سونيا سابقاً! أليس الأب . . .

رفعت سماعة الهاتف بغيظ هاتفاً لصديقي :

ـ آلو! «ج٧» هنا . . . قولي له فلان . . .

ترددت . لقد ارتكبت خطأ في ذكر اسمي ، أجابت مدبرة المنزل بعد نصف دقيقة :

ـ السيد مسافر . . .

ـ شكراً! شكراً جزيلاً . . .

كنت منهك الأعصاب . لم أغلق السماعة إلا بعد لحظة . طلبت الرقم نفسه من جديد .

ـ آلو! هل تتفضلين وتنادين السيد «ج٧» إلى الهاتف لو سمحت . . .

ـ من المتكلم ؟

ـ مدير الشرطة القضائية . . . كنت أرتعش . قلت لنفسي :

ـ لوكان هنا ، وأجابني ذلك التعس!

ـ آلو! أجابني صوت زاد من خفقان قلبي .

كان صوته! إنه هو بعينه!

ـ أهذا أنت أيها الرئيس ؟

ـ عفواً! . . . لست الرئيس مطلقاً! أنا شخص لديه رغبة رهيبة في رؤيتك .

كنت منتصراً ومع ذلك شعرت بالاهانة . سمعته يقول لأحد ما في الغرفة :

ـ لاشيء ياسونيا . . .

ـ حسناً! متى يمكن أن أراك ؟ . . . لدي بعض الأسئلة أستعجل طرحها عليك و . . .

ـ لحظة . . .

سمعت همساًبهماً لحديث بعيداً عن السماعة وصوت امرأة .

أخيراً تناول السماعة من جديد

ـاتفقنا . . . حينما تريد . . . كنت سأذهب لرؤيتك قبل نهاية الأسبوع . . .

كنا في الخامس من آب . مضى شهر ونصف منذ أن قضينا الليل معاً في رصيف أسنيير . قلت :

ـ حالاً!

ـ بعد ساعة ونصف إذن . . . عندي زائر . . .

كنت على وشك الصراخ غاضباً باسم سونيا . ما الذي حصل لي ؟ وماهذه العصبية ؟

بعد ساعة ونصف بالضبط كان هنا ، على حاله دائماً ، هادئ جداً ظاهرياً ،لكنه مضطرب في أعماقه ، عيناه محاطتان بهالتين ، حدقتاه محمومتان .

رمقني بنظرة مترددة ، وبدأ كعادته :

- كيف حالك ؟

بما أني لم أجبه تهالك على أريكة وقال بخطورة :

- صدقني إ ن شئت ، لكني منذ وقت بعيد أرغب في أن أفتح قلبي لك . . . وقع بصره على تقارير السيد لودوك ، فرماني حينئذ بنظرة حزينة جداً بحيث أدرت رأسي .

حكاية عادية

سمعت حفيف الأوراق واحدة واحدة ، وحقدت على لودوك لأنه كان مسهباً .

ولدهشتي العظيمة لم يغضب «ج٧» عندما أنهى قراءته ، ولم يستعمل السخرية لينتقم .

قال :

ـ تقرير جيد! الأمر كذلك تقريباً! لايمكن القيام بأفضل منه مع حكاية عادية لهذا الحد . . .

صدمتني الكلمات . أوشكت أن أحتج . لكنه تابع بنبرة متزنة ، مبطنة بالحزن قليلاً :

ـ شاب يصير عاشقاً بعد أن يرى صورة . شاب يحاول رؤية تلك التي أعجب بها عن قرب . . هنالك خطأ مع ذلك . . ابنة العم إياها ليست في الواقع إلا أخت أحد أصدقاء طفولتي ، متزوجة من موظف أعرفه . . مشهد عرض الأزياء صحيح . . . انتظرت حقاً في الشارع بالرغم من سخرية رفيقتي التي كنت مرغماً على تركها تغادر وحدها .

« شقة نويبي » . . . كلمة شقة مبالغ فيها . . . لنقل أنه مسكن صغير أنيق . . . تكسب الموظفة درجة أولى كثيراً ، وكان يمكن لسونيا أن تعيش عيشة أكثر من مريحة لو . . . سنتكلم عن كل هذا بعد قليل . . . لنتتبع ترتيب التقارير . . .

« السيد بول مراقب . . . الصديق الأول لسونيا ليس إلا فتى تعرفه أنت ، ليفردي ، الملحق السابق في سفارة سان بترسبورغ ، حيث كان غالباً ضيفاً على عائلة مورتزوف . . . وهو الذي ساعدهم حين وصولهم إلى فرنسا ، ووظف سونيا في دار « مادلين وأخواتها » . . .

« إن كان قد غادر أولاً ، فذلك لأنه علم أن . . . أف! كلمة غزل لاأحبها . . . لم يكن هنالك أي غزل بيننا .

« كان هنالك تجاذب عنيف ، حاربناه كلانا على أية حال لأسباب مختلفة . . .

« البارحة فقط أعلنت سونيا عن هزيمتها ، وتكلمت . . .

تمالكت نفسي شيئاً فشيئاً .

كنت أنظر إلى « « ج٧ » وهو يتحدث وبصره غارق في الدخان الذي ينبعث من غليونه ،

ـ . . . ليس عن نفسها! . . . لاتحب الكلام عن نفسها ، ولم تذكر « القصور حيث قضت طفولتها » و « الخدم المتفانين في خدمتها » .

« كان الأمر يتعلق بمأساة أخرى . . مأساة عائلة موروتزوف . . .

« وهذه المأساة ، هي نفسها لم تعلم بها إلا البارحة . . . . ناولتني ورقة . . . وصل طلبت منها شركة تأمين على الحياة

توقيعه ، لم تسمع به مطلقاً . جلبوا لها مائتي ألف فرنك ، المبلغ المكتتب عليه من قبل أبيها لمصلحتها . . .

« قالت باكية بينما كنت أقرأ ـ كيف استطاع . . .

« وسالت الكلمات شيئا فشيئاً بالفرنسية والروسية . . .

« ـ . . . هناك منفيون تأقلموا ، واختاروا مهنة ، أصبحوا سائقين لسيارات أجرة أو نادلين . . . ربما كان أبي سيفعل مثلهم لو لم يستطع جلب مائتي ألف فرنك تقريباً عندما هربنا من روسيا . . .

« كان هذا المبلغ كافياً . لنعيش بعض الوقت إذاً لماذا النزول إلى العمل حالاً ؟

« أخذ يلعب القمار . وهذا كل شيء! . . . المأساة تكمن في هذه العبارة . . . « لقد لعب القمار » . . . « في مونت كارلو أولاً ، حيث لعب بمبالغ كبيرة آملاً استرجاع ثروته . . . لم يكن ذلك اللعب شغفاً مخزياً بعد . كان أبي يرتدي الملابس الفاخرة . وكان يلعب بمشاركة الطبقة الراقية ، في الأماكن الباذخة . . . وهؤلاء أناس أثرياء لايخاطر معظمهم إلا بفائض أمواله . . .

« وهناك ، إذا تمادى أحدهم في اللعب إلى حد الانهيار كان كل شيء منظماً لكي لاتثار فضيحة . . .

« أتذكر شاباً رأيته يخرج شاحباً تماماً ويذهب باتجاه الحديقة ، في الغد ، لم يعد هنا . . . ولم يهتم أحد به . . .

« ولولا فضول أحد الخدم ، ماكنت سأعرف أنه نقل في آخر الليل في سيارة لنقل الموتى .

« ـ يختارون جميعاً نفس الممشى! . . . هذا ماقاله لي الخادم المذكور .

غريب! . . . هناك قرب أشجار الأوكاليبتوس ، ربما لأن فيها مكاناً يطل على البحر . . .

« تملكتني مشاعر حزينة . كان هناك أيضاً عجوز يحاذي في الشارع المقامرين السعيدين ، ولايكلمهم كمتسول عادي :

ـ هل تتفضل وتقرضني لويسيه*

« وهذا كان قد وصل إلى مونت كار لو وبحوزته مايزيد قليلاً عن ثمانمائة ألف فرنك! . . .

« طلبت من أبي ألا يلعب بعدها . . . تردد . . . اعتقد هو أيضاً بنذير شؤم وأنه كان على حافة الهاوية .

« لكن أما كان الناس كلهم يلعبون ؟ أما كنا نعيش في جو مشبع بالاحتمالات والصدف ؟

« انتهى به الأمر لضمي بين ذراعيه وقال لي :

« مهرك ، على الأقل . . .

« لم أقلق بقدر مايلزم . . . كان المال يتبدد . . . والشغف يزداد . بعد سنة كان أبي عاجزاً عن أي شيء إلا اللعب . . .

« في هذا الوقت استلمت وظيفتي في دار الخياطة . . . لم يكن يريد ذلك . . . كان يزعم أننا سنصير أغنياء من جديد من يوم لآخر . . .

« هل رأيت إنساناً عجوزاً يبكي ، ويتوسل ، ويتحايل كطفل ؟ . . .

« هذا ماكان يفعله منذ ذلك الوقت . . . ماعاد يستطيع اللعب في مونت كارلو . كان يلعب في باريس ، في حلقات القمار . . .

---

*لويسيه : ليرة ذهبية فرنسية ، تعادل عشرين فرنكاً .

« ثم هبط مرتبة أيضاً ليصل إلى بيوت القمار السرية . . .

« كان يلعب في البداية بأوراق من فئة الألف فرنك وصار يلعب في النهاية بالقطع النقدية الصغيرة ، بثمن عشائه .

« وصل به الأمر إلى اللعب بنرد الزانزي مع العمال على مناضد الشراب في الحانات . . .

« ومع ذلك كان متعلقاً بحبال الأمل . . كان يشعر بالخزي من نفسه . . . . عندما كان يأتي لرؤيتي كان سيحلف أنه سيتعافى ، وأن هذه هي المرة الأخيرة . . .

« كان يأتي طالباً مني بعض النقود . . ليلعب بها رغماً عنه ، يدفعه الشيطان في داخله . . .

« كان يتعذب ، لأنه كان يشعر بانحطاطه . . . كان يتوسل إليّ ألا أحتقره . . .

« ذات يوم ، ذهب في بذته العسكرية التي احتفظ بها ليمثل دوراً سينمائياً ثانوياً في « جوان فيل » . . . كسب خمسين فرنكاً! . . . أتفهم ؟ . . .

« كنت أوبخه . . . وأحاول إنقاذه . . . كان يعود من دون انقطاع إلى عادته . . . كان يطلب مني مالاً لست أملكه .

« كنت قاسية معه ، وفي المرة الأخيرة ، قبل ثلاثة أسابيع من موته . . . طردته إلى حد ما . . . كان يطلب مني مبالغ كبيرة مرة بعد مرة .

« كنت أعتقد أنها ضاعت في القمار . . . انظر إلى هذه الورقة بين يديك . . .

هذا المال ، كان الدفعات الأولى من التأمين المتعاقد عليه لصالحي .

« وأكرر ، طردته خارجاً . . . أردته أن يشعر بالخزي . . .
« هذا مرعب ، أليس كذلك ؟ لقد مات مقتولاً . . . إلا إذا . . . » أنا الذي كرر دون علم مني وجزعي منحنٍ إلى الأمام :
« إلا إذا ؟
تنهد « ج٧ » قائلاً :
ـ ألم تفهم ؟ ضع نفسك مكان هذا الرجل ، الأب ، ولاتنس أنه يعبد ابنته ، وليس له في هذه الدنيا إلا هذه العبادة ، هذا المكان النظيف الوحيد في قلبه . . .
« لقد أكل المال الذي كانت تكسبه . . . . ماذا أقول . . . لقد عاش على حسابها . . . كان يذهب للتسول على بابها . . .
« كانت تعمل ، وهو ، خلال ذلك الوقت . . . »
ـ إيه ؟
ـ تعال معي . . .
ـ إلى أين ؟
ـ إلى أسنيير . . .
أفزعتني إلى حد ما فكرة الذهاب إلى هذا البيت الصغير .
ـ « لاتخشَ شيئاً! القضية حفظت!
« القاتل مجهول »! لقد أزيل الشمع الأحمر ، وهناك لافتة كتب عليها « للإيجار » .
صار أكثر حزناً .
ـ لكن ماذا قلت لسونيا ؟
ـ لاشيء . . .
ـ كيف ، لاشيء ؟
أشاح بوجهه ، فريسة خجل غير متوقع

ـ لاشيء . . . كنا قريبين أحدنا من الآخر كان رأسها فوق صدري ، وحينها . . .

ـ وحينها ؟

ـ سألتها إن كانت تقبل العيش معي وأن تمزق وصل التأمين من أجل هذا . . .

وضعت قبعتي . كان الدم يصخب في أذني . قمت بجهد عنيف لكي أفهم .

همست لنفسي في سيارة الأجرة :

ـ مع ذلك لقد قتل الجنرال . . . لاأفهم لماذا هذا التأمين . . .

صوب نظرته إلى الأمام ، زم منخريه . بعدها بكثير قال لي :

ـ إنها في بيتي . . . تنتظرني . . . البارحة فقط تكلمنا بصراحة . . . بقي لدينا الكثير يقوله واحدنا للآخر . . . لكن اتصالك الهاتفي . . .

ـ أستميحك عذراً . . . كنت . . .

ـ . . . قلقاً ، نعم! . . .

الشوارع لامتناهية! سيئة الرصف . سكة الحديد تذكرني بذكريات سيئة .

هناك سيارة أجرة أمام البيت . يقفز «ج٧» فجأة متشنجاً ، يندفع نحو الباب الذي كان موارباً . وفي الممر كانت سونيا تنظر إلينا بخجل تام .

بادر صديقي قائلاً :

ـ ماذا تفعلين . . . ؟

مرة أخرى كنت متطفلاً . نظرت الفتاة إليّ قبل أن تجيب .

ـ يعرف كل شيء . . . يمكنك الكلام في حضوره . . .

لكنها لم تجرؤ بعد . حاولت مع ذلك :

ـ كنت أريد . . .

أطلق صاحبي زفرة ملل .

ـ حسناً ، ليكن! ستفهمين كل شيء ياسونيا . هذا أفضل . . .

والتفت نحوي متجهماً . . .

ـ وأنت أيضاً .كانت الجدران ترشح . لم تُرتب الفوضى التي سببها كشف النيابة العامة .

قال «ج٧» وهو يرتقي الدرج :

ـ فكروا بالجنرال . . . بالجنرال وحيداً في هذا المنزل . . . بالجنرال الذي ماعاد يستطيع حتى المقامرة ، وماعاد لديه أي أمل . . . لكنه كان فريسة الندم والخزي! . . .

«لقد حطم ابنته . . . ما . . .»

صمت وهو ينظر إلى رفيقته التي اتسعت حدقتاها .

وتابع حين وصل العتبة

ـ . . . ماعاد لديه أمل في شيء . . . لاشيء يمكنه إنقاذه! . . . ألا يمكنه إصلاح ماأفسد ؟

«قبل ثلاثة أشهر من موته وقع عقد تأمين : . . . وطلب من سونيا الدفعات الأولى . . . وهذا أول مال لم يقامر به!

«لابد من الانتظار . . . ينبغي أن يكون موته طبيعياً ، وعلى أية حال ينبغي ألا يكون هنالك انتحار وإلاّ رفضت الشركة الدفع . . .

«أخذ ذهنه يعمل . . . كان وحيداً طيلة النهار . . . لديه وقت للتفكير إنه لاعب شطرنج ، كالروس جميعهم . . . يحب التعقيدات . . .

« يجد الحل . . . يقص حروفاً من الصحف . . . ويعلن للشرطة أنه سيقتل في ليلة ٢٠ حزيران . . .

« وهكذا ستراقب الشرطة بيته من الخارج

« يتعشى كعادته في المطعم الفرنسي ـ الميلاني . . . وحده ممن في القاعة يعرف أن هذا عشاءه الأخير . . .

« يعود ببطء . . . يشاهدنا . . . يصعد الدرج ، يشعل المصباح . . .

شعرت بألم في أعصابي جراء تخيل المشهد ، أنا الذي عشته تقريباً على الأقل من الخارج .

ليلة المطر الغزير تلك ، والقطارات التي تمضي ، والخدر . . .

يتابع « ج٧ » قائلاً :

ـ يكشف سريره كعادته كل مساء . . . يرتدي ثياب النوم . . . المسدس على منضدة الليل . . . يجب أن يختفي مباشرة بعد موته لكي لايتم الحديث عن انتحار . . .

« لن يصل رجال الشرطة على الفور . . . السلاح مزود بكاتم صوت كذلك الذي نجده في المحلات التجارية . . .

« لكن من هو الشريك الذي سيخفي المسدس ؟ . . . »

حينئذ تردد في داخلي :

ـ غفوت سبع دقائق! . . .

ظننت أني كشفته ونظرت إلى « ج٧ » بإعجاب .

ـ شريك صامت! شريك لاحياة فيه . مجرد حجر ملتقط من الطريق ، يربط الجنرال وهو في بيجامته خيطاً بزناد المسدس . . . ويربط الحجر بطرفه الآخر .

« يُدلي الحجر في أنبوب المدفأة . . . . مبدأ الثقل الموازن

القديم . . . طالما يمسك بالسلاح فإن الحجر المشدود إلى أسفل لايسقط . . . لكن لو يترك المسدس ، فإن الحجر الأثقل يسحب المسدس إلى الأنبوب . . .

« يطفئ المصباح . . . كل شيء في مكانه وماهو ذا واقف . . . لديه وقت للتسديد . . . لن يزعجه أحد . . .

«عندما نصل نحن الشرطة صباحاً ، نجد أن أحداً لم يدخل ، وأن أحداً لم يخرج! مامن مسدس في الغرفة ، ومع ذلك هناك رجل ميت برصاصة في قلبه . . .»

تغيرت نبرة صوته . التي كانت جافة ، متهدجة حتى الآن . فأصبحت لاهثة أكثر .

ـ عرفت كل هذا بعد الدقائق العشر الأوائل من التحقيق» .أتذكر في الواقع أنه أمضى هذه الدقائق العشر في البحث عن السلاح .

ـ الأنبوب مفتوح . . . خدشان في الصفيحة . . . إذن الجنرال مات منتحراً ، وبالنتيجة كانت لديه أسباب قاهرة جعلته يخفي عن الناس انتحاره . . .

نظرت إليه بدهشة . أما سونيا فكانت لاتراه حتماً لأن الدموع كانت تبلل عينيها .

ـ التزمت الصمت ، لأني وددت أن أعرف سره أولاً . . رجل ذكي ، محترم ، انتحر وحاول المستحيل لكي يجعلنا نعتقد أن هنالك جريمة ، لم أجد أن من حقي لا كرجل شرطة بل كإنسان ، أن أجعل الصحافة تنشر على الفور : «انتحر الجنرال موروتزوف» .

سحبوا مني إدارة التحقيق ولم ألح . . .

«مع ذلك كانت الإهانة مؤلمة جداً ، فدفعتني إلى تقديم استقالتي . . .

«بعد ذلك بقليل كنت أتصفح الملف في مكتبي . . . اكتشفت بوليصة التأمين ، وصورة وجه في الوقت ذاته . . .» .

كان الأفضل أن أصمت . لكن في تلك اللحظات ، هناك قوة لاتقاوم تدفعك دائماً لارتكاب الحماقة .

قلت :

ـ ولكي تتابع التحقيق إلى نهايته ذهبت إلى دار «مادلين وأخوتها» ؟

رفع كتفيه . لم ينتقم إلا بلهجة احتقار :

ـ يبدو أن هناك أناساً بارعين إلى حد كاف يجعلهم يعرفون سبب قيامهم بهذا الأمر أو ذاك . . . أما بالنسبة لي فإني عاجز في الحياة عن التمييز لأي شعور أخضع . . . أو بالأحرى هنالك دائماً أسباب عديدة متشابكة جداً بحيث أني لاأتعرف نفسي ذاتها فيها .

«التقيت بسونيا! أحببتها! هذا كل مايهم!

«مزقَتْ بيديها بوليصة التأمين .

ـ وسوف تمزق بيديك كتاب استقالتك ؟ . . .

أردت أن يُغفر لي . كنت سأبذل الكثير لكي أجد جملة لطيفة تمضي مباشرة إلى قلب «ج٧» .

نظر إليّ بغموض .

ـ مازلت لاأعرف .

ـ مع ذلك . . .

ـ ليست هنالك إلا الشرطة الرسمية فقط . . . ولاأدري لمَ لاأنافس السيد لودوك . . .

تضرج وجهي خجلاً وتلعثمت بما لاأدري مستأذناً الانصراف ، نزلت الدرج متوكئاً على الدرابزين ، وأعتقد أن «ج٧» كان خلف الباب مع سونيا أحدهما في حضن الآخر وقد تخلصا أخيراً من أعند الطفيليين . الطفيلي الذي عاند ، وحشر يديه في سخام المدفأة الصغيرة في الأسفل ليسحب منها المسدس والخيط والحجر!

مورسانغ حزيران ١٩٣٠

لغز ماري ـ غالانت

* اسم مركب . (من المترجم)

مركب من دون ربان

بينما كنا نجتاز مركز الجمارك في فيكامب على متن سيارته القديمة البالية ، كان « ج٧ » أكثر تأثراً مما يريد أن يبدو .

قال لي مرات عديدة مازحاً :

ـ يلذ لي رؤية أول زبون لي!

لأنه سيبدأ عمله كمحقق خاص . ترك الشرطة القضائية للتو . استأجر مكتباً صغيراً في شارع « بيري » . وأرسل بضعة آلاف نسخة من رسالة معممة إلى كافة أرجاء فرنسا .

تلقيت البارحة مكالمة هاتفية .

ـ هل لديك وقت لنزهة في « فيكامب » ؟

كنا في بداية ايلول . الطقس رائع . هذه أول مرة أرى فيها مرفأ الصيد من دون مطر . سألني عندما مررنا بساحة دار البلدية في شارع « دي بيلج » (البلجيكيون) . . .

ـ هل تعرف المدينة ؟

ـ إلى اليمين . . . . مقابل حوض الميناء تماماً . . .

مايزال بعض السباحين يختلطون بالناس ببناطيلهم البيضاء .
كان البحر شديد الزرقة ، ساكناً تماماً ، بعد أرصفة المرافئ .
قال وهو يقرأ صفيحة نحاسية ويوقف سيارته من طراز 5.C.V، التي جذبت على الفور بعض الأطفال :
-مورينو ، مجهز سفن . . . هنا!
كان مرحاً وقد استعاد شبابه .
دخلنا مكتباً صغيراً ، فيه شابة عانس جافة العود ، وموظف مدور ككرة صغيرة ، يعيشان في مكان يشبه الحوض المائي .
أي حاجة تجعل بعض الناس يُركبون زجاجاً أخضر اللون على النوافذ ؟ لاأعرف شيئاً عن هذا الأمر . لكن هذا اللون الأخضر مقترن بلون أدراج الملفات التي تغطي الجدران ، وكذلك باللون الأخضر القاتم لغطاء الطاولة ، يسبب الدوار .
كانت عينا «ج٧» تضحكان وهو ينظر إلى هذين النموذجين لمخلوقات الريف اللذين كانا قبالتنا .
ـ بم يتعلق الأمر ؟
ـ السيد مورينو من فضلك ؟
أجابها ببرود :
ـ أنتِ السيد مورينو ؟
ـ أنا سكرتيرته . السيد مورينو مشغول جداً في هذه اللحظة . . .
ـ حسناً! قولي له أنني أنا بالضبط من ينتظره ، .
ـ أنت محقق .
ياللهول! العجيب في الأمر أن المؤسسة كلها على هذه الحال ، بما فيها شقة السيد مورينو الخاصة ، الذي كان مليونيراً مع ذلك!

والشارع كله ليس أفضل حالاً! قماش جدران قاتم اللون . بسط ذات لون خامد بلا بريق ، زد على ذلك زخارف زجاجية تطرد بهجة شعاع الشمس إلى الأبد .

ماجدوى امتلاك مراكب بحرية إذا كان المرء سينعزل في جو كهذا .

سمعنا همساً في الغرفة المجاورة . انفتح الباب ، وأشار إلينا السيد مورينو بالدخول .

رجل أصلع الرأس ، يرتدي ملابس سوداء واسعة جداً بالنسبة لحجمه ، تعلوها ياقة مركبة من مادة السيلولويد البلاستيكية .

ـ السيد «ج٧» ؟ لابد أن السيد أحد معاونيك ؟ . . .

سارعت في القول لكي أعطي لصديقي بعض البريق ،

ـ بالضبط!

ـ حسناً! ياأيها السيدان ، عندما كتبت لكما ـ ماكنت أشك أن القضية إلى هذا الحد من الخطورة! خطورة استثنائية أتسمعان «استثنائية! . . . وفي هذه اللحظة تعاين النيابة العامة المكان . . .

ضرب المنضدة بقطاعة الورق لتأكيد هذا الإعلان الحاسم .

ـ أفترض أنك سمعت عن لغز «ماري ـ غالانت» ؟

ـ اعذرني . . . لاأعرف بعد شيئاً .

ـ ألا يهتمون بهذه القضية في باريس ؟ . . . . حسنٌ جداً . . . جيد! . . . سوف يهتمون بها من الآن فصاعداً . . . .

وضحك هازئاً ، يبدو أنه يهدد الباريسيين .

ـ ماري غالانت ، أيها السيدان ، هي إحدى بواخري . . . أمتلك سبعاًمنها . . . اثنتان منها تصطادان سمك الفيدس في

جزيرة «تيرنوف» الكندية . . . وهي ذات ثلاثة صواري . . . وواحدة ذات صارٍ متوقفة عن العمل لنقص في طاقمها . . . هذا أيضاً ، لايعرفه أحد في باريس! . . . ثم ثلاثة مراكب صيد بالشبكة الجيبية بخارية تصيد سمك الرنكة في بحر الشمال . . . ثم ماري ـ غالانت . . .

التفت ليشير لنا على الحائط ، إلى صورة مركب يوم إنزاله إلى البحر أول مرة بعد بنائه ، ورجال ببزات من سنة ١٩٠٠ وأعلام كثيرة .

ـ زورق ذو صاريين بُني لنقل الملح إلى جزيرة «ترنوف» الكندية . . . مباشرة بعد الحرب زودته بمحرك ديزل كلفني مائة وخمسين ألف فرنك ، بحيث يستطيع الإبحار بالشراع وبالمحرك . . . منذ ثلاث سنين هاهو ذا في حوض المرفأ بسبب الأزمة . . .

كان هنالك تناقض مضحك بين استدارة شكله وحبه للتكلم بوضوح ، وقذفه الكلمات في وجه محدثه كالحصى .

ـ حسناً! منذ خمسة أيام أوقظت من نومي في الساعة الثانية صباحاً . . . ذلك موظف السكور في الحوض . . . لكن عذراً! أتعرف المرفأ ؟ . . هنالك أولاً مانسميه بمدخل ، حيث ترسو القوارب التي لاتتوقف إلا وقفات قصيرة جداً . . . ثم الحوض ، المنفصل عن البحر بسكر ، بحيث لايتأثر بعوامل المد والجذر . . . في آخر الحوض ، هناك حوض ثانٍ ترسو فيه المراكب المعطلة . . . تتوقف فيه ماري ـ غالانت منذ ثلاث سنين . . . تتعفن فيه بهدوء بانتظار أن تتنازل السلطات العامة وتهتم بالملاحة البحرية الفرنسية . . .

«أيقظني إذاً موظف السكور وهو نفسه أيقظه حارس الجمارك الذي رأى بدهشة زورقاً بصاريين يخرج من الحوض ، ويصل إلى رصيف المرفأ ويتوجه إلى البحر من دون إشارة ضوئية بالمصابيح المخصصة لذلك .

«شككت أن موظف السكور ثمل ، بعد أن شرب مساءً جرعة زائدة ، مما جعله يغط في نوم عميق . . . في هذه الأيام لاتخرج السفن قط . . . لم يطلب أحد منه فتح السفن . . . فتح أولئك الذين كانوا يقودون ماري ـ غالانت السكر المتحرك والأبواب أنفسهم .

«اعترِفا أن الأمر كلغز رائع إلى الآن! . . . لاحظا أن المركب علاوة على ذلك وفي حالته التي كان عليها في الحوض كان غير قابل للاستعمال . . . فمن جهة لم تكن على متنه أشرعة . . . ومن جهة أخرى لم يكن في الخزانات زيت ثقيل ، وكان المحرك متضرراً . . .

«باختصار ، لابد أن أولئك الذين غادروا بمركبي قد جهزوه ، وهذا يعني عمل عدة ليالٍ . . .

«أخبرت السلطات البحرية . . . اتصلوا بمرافئ الساحل كلها ، بما فيها تلك التي تقع على الساحل الانكليزي . . . وكذلك تم إعلام حراس المنارات عن طريق الرسائل البرقية . وطُلب من السفن التي تصيد في بحر الشمال الاعلام عن ماري ـ غالانت فور مشاهدتها .

«جاء الصباح ، ولاشيء! . . . عند الظهيرة لاحظ ربان «فرانسيت» ، وهو مركب لصيد سمك الرنكة ، زورقاً ذا صاريين ينحرف وسط مضيق «بادي كليه» البحري . . . لاأحد على متنه! . . . فقَطره عائداً به . . .

«هذا أول فصل . . . لاشيء حقاً يدعو إلى الضحك! . . .»

كانت هذه العبارة الأخيرة موجهة لي ، لأني كنت أبتسم رغماً عني من الحديث عن هذا القارب العجيب الذي أعيد مجروراً بحبل قنب بعد اختفائه! لاسيما أن ملكيته تعود إلى هذا الرجل القصير الحاسم جداً رغم كرشه وصلعته!

ـ لاداع لأن أؤكد لكما أن ليس لي أية ثقة بالشرطة الرسمية . . . أفضل أي رجل يلتزم بمثل هذه القضايا ليكسب قوته . . . لذلك كتبت لكما . . . لأن قبطان «الفرانسيت» طبعاً يطالبني بحق الإعادة ، وهذا يكلفني حوالي مائتي ألف فرنك . . .

«ولكن هذه هي بداية القصة فقط . . . بعد أن فتش مفوض الشرطة المركب قام أحد مراقبي العمال عندي بزيارة المركب بدوره . . . كان يريد فحص المحرك ، الذي أصلحه فني حقيقي بطريقة أفضل مما لو كان التصليح قد تم في ورشة في «فيكام» . . .

«عاد مراقب العمال إليه البارحة مساءً من دون علمي . إنه رجل يحب أن يفهم . . . قد يفك لك آلة لمجرد أنها تصدر ضجة لاتعجبه . . .

« وكان الأمر يتعلق بضجة بالضبط . . . كان في القارب زيت يكفي لرحلة عشرة أيام على الأقل . . . ولاحظ المراقب في الوقت نفسه أن ليس في الخزانات ماء عذب . . .

« هل تفهم ؟ . . . لقد تحملوا مشقة حمل الوقود لكنهم لم يحملوا أي شيء للشرب! . . .

«حينذاك لاحظ المراقب وهو ينقر على الخزان أن الصفيح المغلفن كان يصدر صوتاً غريباً . . . فك الصنبور . . . وأدخل

سلكاً حديدياً إلى الدا خل فاصطدم السلك بعقبة . . . اتصل بي فطلب الاذن بفك الخزان . . .

« كان الخزان ملحوماً شأنه شأن كل الخزانات من هذا النوع . . . فك بعد ساعة أحد الجوانب . . . هل تعرف ماأكتشف فيه ؟ . . .

قال « ج٧» .

ـ جثة ؟

ومكافأة له تلقى نظرة حادة من الرجل الذي انقطع أسلوبه المؤثر .

ـ نعم ، امرأة ميتة! . . . وهاهم رجال النيابة العامة على متن الزورق ، في اللحظة ذاتها . . . امرأة ميتة في خزان ملحوم! تُفضل الصحف الباريسية الحديث فقط عن قضايا الآداب وطلقات الرصاص المتبادلة بين العشاق والعشيقات . . . لكن امرأة ميتة في خزان الماري ـ غالانت! . . . هذا كل شيء ، أيها السيدان . . . أجهل إن كنتما قادرين على اكتشاف شيء ما . . . هذا بسيط! . . . إن نجحتما في كشف هذه الحكاية ، لكما خمسة وعشرون ألف فرنك . . . وإلا ، أدفع لكما مصاريفكما بالتحديد . . . . هل هذا مناسب ؟

تملكتني رغبة في أن أنفجر ضاحكاً بالرغم من الموقف المأساوي للحكاية ذاتها .

ـ ماترغبه هو أن أكشف قاتل المرأة . . .

ـ عفواً! أريدك قبل كل شيء أن تضع يدك على أولئك الذين خطفوا المركب إلى عرض البحر . . . لأنهم هم من سيدفع فاتورة حساب قبطان الـ « فرانسيت» . . .

نهضنا . كان محدثنا حائراً قليلاً من قبولنا السريع لشروطه . يبدو أن هذا لم يطمئنه . ربما خشي أن نتهاون في العمل بسبب قلة المال .

أضاف مع ذلك بنظرة مواربة ، وهو يسحب محفظته من جيبه

ـ هل معكما مال ؟ . . . أستطيع ، بصفة سلفة . . .

ـ شكراً . . . تسرنا رؤيتك مرة أخرى سيد مورينو . . .

شاهدنا الفتاة العانس وموظف الحوض المائي . في الخارج ، كانت تصل من عرض البحر نسمة خفيفة ، دافئة ، مسكرة ، شعرنا بحاجة لملء رئاتنا منها عند خروجنا من البيت .

قال «ج٧» مشيراً إلى سيارته التي كانت بمأمن سواء على حافة الطريق أو في أي مكان آخر :

ـ لاحاجة إلى وضعها في الكاراج!

كان عندي شعور بأن شيئاً ما يحيره ، بل يزعجه . كان يمشي دون هدف على امتداد الرصيف حيث تبيع أغلب المحلات ملابس كتيمة وقبعات بحارة شمعية وكنزات صوفية وأحذية بحارة .

قلت وكأني امتلكت مفتاح اللغز :

ـ ألن نذهب لرؤية ماري ـ غالانت ؟

ـ النيابة العامة هناك . . . لم يعد لدي أي صفة رسمية . . .

كان يبتسم مزهواً . لكن استقالته كانت حديثة العهد بحيث كدرت صفوه قليلاً .

ـ هيا لنرَ السُكر بالأحرى قبل ذلك . . .

كنا على مبعدة مائة مترمنه . وهو سُكر عادي . في إحدى الجهات مدخل الميناء وأرصفته . كانت هناك زوارق صيد في مدخل الميناء مطلية باللون الأخضر ، والأزرق ، والأصفر تنتظر المد لتبحر .

وعلى العكس كانت المراكب في الحوض أكثر أهمية . كان عشرة رجال أنصاف عراة يفرغون حمولة قارب صيد سمك الفيدس عائد من جزيرة «ترنوف» ، كانوا يملؤون عربات كاملة بالسمك المملح ، تقطرها بعد ذلك قاطرة صغيرة على الرصيف نفسه إلى المحطة .

وعلى متن زورق أصفر ذي صاريين ، مخصص لصيد سمك الرنكة ، كان عشرة صيادين بستراتهم الفضفاضة ينتظرون أن يرتفع المد إلى حد كاف ليبحروا باتجاه بحر الشمال .

همس «ج٧» قائلاً :

ـ ينبغي فتح أربعة سكور متحركة وبابين . يكفي رجل واحد لفعل ذلك . . . كان موظف السكور هنا يدخن غليونه . وهو رجل ذو شاربين ضخمين متهدلين ، يضع شريطاً زخرفياً فضياً جديداً على قبعته .

ـ كم عددكم لتشغيل السكر ؟ . .

نظر الرجل إلى صاحبي بدهشة :

ـ أنا وحدي ، أجل! . . . إن كنت تعتقد أن الحكومة . . .

وضاعت بقية الكلام في شاربيه اللذين كان يعلكهما أثناء الكلام ، بحيث كان نصف الكلام مبتلعاً .

كان «ج٧» خبيراً بأحوال الرجل إذ قال لي بينما كنا نبتعد :

ـ إنه نصف سكران الآن . . . باختصار ، هذا رجل ساذج يمكن شراؤه ببعض المشروبات . . .

هذا مع ذلك لايفسر أي شيء إطلاقاً . لم يكن اجتياز السكر أهم جزء من المغامرة .

مارأيك بمجهز السفن ؟

كان السؤال موجهاً لي .

كنت أتخيل هؤلاء الناس على نحو مختلف . . . لأنهم يملكون القوارب يتصورهم المرء محتالين . . . والحال أنه ليس إلا بورجوازياً صغيراً بشعاً غارقاً في أحكامه المسبقة . . .

أوقف «ج٧» صياداً وسأله :

ـ عفواً ياصديقي! لدي سؤال! هل السيد مورينو متزوج ؟ . . .

ـ مجهز السفن ؟ . . طبعاً! . . . وله ابنة وابن . . .

ـ كبيران ؟ . . .

لم يفهم الصياد لماذا ناديناه على هذا النحو .

ـ لابدأنهما في العشرينات . . . أي الشاب على كل حال . .

ـ شكراً جزيلاً . . .

قال متوجهاً إليّ :

ـ استعلام بسيط ، على الماشي . . . لاأحد يدري أبداً!

قلت :

ـ أتشوق لرؤية السيدة مورينو ، أراهن أنها عجوز فظة ، ترهب من في البيت . . .

وصلنا إلى مسافة مائة متر بعيداً عن حشد هائل من الناس ، كانوا واقفين فوق الرصيف قرب ثلاث سيارات ، واحدة منها لنقل الموتى .

المجهولة

بقينا قرابة ساعة بين الجماهير نشاهد الماري ـ غالانت . كان انطباعي الأول شعوراً بالدهشة . عندما حدثنا السيد مورينو عن زورق ذي صاريين ، وحتى عندما أشار إلى صورة مركب ، لم أستطع وقتها أن أحدد أبعاده .

كان المركب ضخماً . بطول ثمانية وعشرين متراً ، على الأقل ، دون أن نقيم حساباً لصارٍ مائلٍ يزيد من طوله أيضاً . وإضافة إلى ذلك كله كان عريضاً مكوراً مرتفع الحوافي مع صوارٍ بارتفاع ثلاثين متراً . ينبغي على المرء أن يراه هنا في الحوض الضيق بعدته المبعثرة ويقول لنفسه ويَعجب إن هذا القارب اختطف وكأنه ثمرة جوزة الطيب .

كان شعور آخر يلحّ علي ، مختلف جداً ، وربما ناشيء من كوني مازرت يوماً فيكامب إلا وكان المطر ينهمر والرياح تعصف . كان الجو حينذاك مشؤوماً ، والهواء مشبعاً برائحة سمك الغيدس اللاذعة . كنا نتجول في كل مكان فوق وحل مليء بحسك السمك وفضلات لا إسم لها .

أما هذه المرة فقد وصلت من أجل التحقيق في جريمة وكانت الشمس ساطعة . كان الهواء ساكناً ، يحركه النسيم العليل إلى حد ما . كان كل شيء يتألق . ماء الحوض نفسه كان يبدو أقل ركوداً واتساخاً .

كان بعض الرجال فوق سطح المركب يتبادلون الحديث بصوت خافت ، يتجولون ، ويتجمعون ، ويفترقون..

إنهم ممثلو النيابة! كان «ج٧» على الأرض بين الجمهور . أشار إلى رجل ضخم الجثة ، منكباه أعرض مرتين من منكبي .

قال لي :

ـ هذا هو المفتش لوكاس!المكلف بالتحقيق .

ـ الأقوى ؟

ـ الأقوى!

كنا لانستطيع معرفة مايجري في الداخل . نزل أحدهم في لحظة ما إلى الأرض وطلب كلابات قوية . بعدها بقليل ظهرالطبيب على السطح وتكلم طويلاً مع رئيس النيابة وقاضي التحقيق .

سأل صاحبي أثناء ذلك وقد توجه إلى صياد :

ـ كم يلزم من الرجال لتشغيل هذا المركب ؟

ـ حسب الظروف . . عندما كان يبحر ، كانوا ستة على متنه بالاضافة إلى القبطان . . لكن مع المحرك ، يمكن الاكتفاء بثلاثة ، وأحياناً اثنين . . .

كنا في أقصى طرف المدينة وكانت وراءنا سكة الحديد ، ثم أرض خالية تكومت فيها أكداس القمامة . نبهتنا ضجة بين الجماهير أن شيئاً ما يحدث . وفي الواقع كان هنالك رجلان يرفعان

شكلاً ممدداً على السطح . لم يكلف أحد نفسه عناء جلب كفن قماشي فأحاطا الجثة بقطعة من قماش الشراع .

ـ افسحوا المجال ، أنتم!

تسلل الرجلان مع حملهما حتى سيارة نقل الموتى .

أكرر ماقلت ، لم يكن الجو مشؤوماً ولا مأساوياً! تابع الناس الحديث بصوت عالٍ . حتى أن ولداً رفع الغطاء ليرى الجثة .

صُفقت الأبواب . كان رجال النيابة قد عادوا إلى سياراتهم . وبقي لوكاس وحيداً على متن المركب .

ـ تعال . . .

تبعت « ج٧ » وكان لوكاس قد جاء نحوه ماداً يديه .

ـ ماذا تفعل هنا ؟ . . هل تقضي عطلتك في الجوار . . ربما في « ايتيرا » ؟

كان صديقي متورد اللون ينظر إلى جهة أخرى .

أنا . . . أنا مكلف من قبل السيد مورينو .

ـ حسب توصية ؟

ـ عفواً! لقد تركت سلك الشرطة! أعمل لحسابي الخاص . . .

ـ آه! جيد . . .

غمز المفوض بعينه .

ـ هذا مربح أكثر ، وي! . . . هذا ليس بحمق ، ياشباب!

لم يقدّر « ج٧ » أن الشرح ضروري ، وأن يعترف أنه استقال من الشرطة القضائية بسبب امرأة .

لم يكن قد تعود بعد على دوره كمحقق خاص فسأل بخجل :

هل أستطيع أن ألقي نظرة ؟ . . .

ـ افعل ماشئت . . . ليس هنالك على كل حال شيء يستحق المشاهدة . . . كان ينبغي أن تأتي عندما كانت المرأة هنا . . .

ـ هل تعرّفوا هويتها ؟ . . .

ـ أبداً! ليس معها ورقة تثبت هويتها! ولا أية علامة على ثيابها الداخلية! ماتزال الملابس هنا في الواقع ، ذلك لأن الطبيب بدأ أولاً بتجريدها من ملابسها .

وقادنا إلى مقصورة تفوح منها رائحة العفن ونقيع الملح .

ـ لابد من ارتداء جزمة للمشي في الداخل . . . الفطور تنمو على الجدران الفاصلة . . . المركب مهمل منذ ثلاث سنين . . .

مقصورة القبطان ضيقة ، كان فيها مصباح ذو إطار بقي فيه قليل من النفط ، وكان يرشح .

ـ هاهي الملابس . .

كان هذا أول انفعال لي . كانت الملابس مكومة فوق المنضدة . كما لو أن المرأة خلعت ملابسها للتو . لن أتمادى وأقول أن ذلك كان فيه شيئ مثير للشهوة ، لكن أزعجني مع ذلك أن أرى المفوض يمسك الملابس الداخلية بأصابعه الضخمة .ثياب داخلية وردية اللون ، ناعمة جداً ، غالية الثمن . الثوب الأسود هو أيضاً كان كافياً لتحديد الوضع الاجتماعي للضحية .

ليس هنالك أي ابتذال رخيص . صُنعت هذه الملابس في دور أزياء راقية ، قلة من النسوة يحظين بارتدائها .

سأل « ج٧ » :

ـ أليس هنالك معطف أو قبعة ؟

ـ لم نعثر عليهما وكذلك الحذاء . مع أننا فتشنا كل شيء ، من المخزن إلى تفاحة الصاري . وليس هنالك أيضاً أي أثر للأغذية .

وجدنا بمثابة كل شيء على زجاجة مسطحة سعة ربع ليتر كانت تحوي الويسكي ، لكنها فارغة إلى آخر قطرة . . . كانت في الأعلى قرب دفة القيادة . . . كان المفوض يدخن بشراهة ويقاوم الرائحة المقززة التي تعم القارب كله .

قال «ج٧» ملاحظاً ببطء :

ـ كانت هنالك مع ذلك مؤونة من الزيت الثقيل .

ـ هل أنت على اقتناع ثابت ؟ . . . نعم! بالضبط . . . كمية كافية لرحلة هامة . . . كافية مثلاً للوصول إلى غرينلاند أو شمال النروج . . . لابد أن تحميل براميل الزيت على متنه كان صعباً جداً ، فهي تزن مائة وثمانين كيلو غراماً ، وينبغي على حاملها ألا يراه أحد . . . بالمقابل ليست هنالك قطرة نفط في مصابيح الاشارات الضوئية . . .

ـ كما لو أن الرحيل قد تم قبل الموعد المحدد ، قبل أن يجهز كل شيء . . . هل اختفى أحد الزوارق الصغيرة على متن المركب ؟ . . .

ـ لم يكن في المركب إلا زورق صغير واحد على مشجب تعليق المعاطف . زورق قديم نصف مخزوق ، وهو لايزال فيه إلى الآن . . .

ـ والمركب ، لم يجدوه قرب اليابسة .

ـ في منتصف بحر المانش تقريباً .

ـ ماذا قال الطبيب ؟ . . .

ـ ماتت الضحية خنقاً . . . يبدو أن زمن الوفاة يعود إلى وقت كان فيه القارب في البحر . . . لكن التشريح وحده الذي سيتيح تحديد هذه النقطة بدقة . . .

ـ والبصمات ؟ . . .

ـ سنحاول رفعها عن زجاجة الويسكي . . . أما غيرها فهذا

مستحيل . . . وأشار لنا إلى المنظر . مركب كان قد بُني لنقل الملح ولإقامة الناس الخشنين .

لم يكن هنالك مكان نظيف ، ولامكان قابل للسكنى .

- ماعمرها ؟ . . .

- بين الخامسة والعشرين والثلاثين . . .

- جميلة ؟ . . .

أجاب المفوض ببعض الضيق :

- أنت تعرف . . . بعد قضاء أربعة أيام في خزان . . . نعم ، لابد أنها كانت جميلة .

لابد أن منظر الجثة كان مزعجاً ، لأنه بمجرد أن تذكره زم شفتيه .

- تعالوا شاهدوا الخزان . . .

كان علينا عبور عنابر الملح ، حيث كان المكان على ارتفاع أربعين سنتمتر ، وحيث وضعت ألواح فوق براميل خصيصاً للنيابة العامة . كان هناك خزان قرب طرف السفينة الأمامي سعته ألف ليتر ، مختوم بالشمع على سطح السفينة . كان ضلع من أضلاعه قد انتزعه مراقب العمال الذي اكتشف الجثة .

- صدفة! كانت هناك فرصة من مليون لكشف الجثة . . . لقد تم ذلك لأن مراقب العمال رجل متطرف ودقيق في الوقت نفسه . . . وإلا لكان المركب بقي هنا سنوات . احتمال إبحاره كان غير وارد ، لأن هناك مراكب بخارية أسرع منه . . . وكان تعفن في الحوض . تغير مزاجي الطيب ، بالرغم من الشمس التي كنا نلاحظها من خلال العوارض المفتوحة .

- بالنسبة للمحرك ، ماكان ليعمل أبداً بمثل هذا الكمال . . .

أولئك الذين أصلحوه اختصاصيون حقيقيون . . . واستنتج المفوض :

ـ ليس علينا إلا انتظار صدفة جديدة . أو أن يتعرف أحدهم على الجثة . ستظهر صورتها هذا المساء في الصحف كلها . . . وسوف تعمم على الشرطة الأوروبية كلها . . . أنت تعرف التقليد المتبع لأنك كنت في السلك . . . هل نشرب كأس بيرة معاً ؟ . . .

ـ ماكان «ج٧» ليستطيع الرفض . ذهبنا إلى مقهى صغير على المرفأ ، ليس فيه إلا صيادون يتحدثون باللهجة النورماندية المحلية .

ـ توجه مورينوإلى وكالة خاصة أمر غريب حقاً . . .

كان الحديث يفتر

تنهد المفوض قائلاً :

ـ بانتظار نهاية التحقيق لدي خمسة عشر يوماً على الأقل أعيش فيها في هذه المدينة الصغيرة . . . لو أني أعرف أن الطقس سيبقى جميلاً ، لكنت اصطحبت امرأتي والأولاد . . .

ألم تتزوج بعد يا «ج٧» ؟ .

ـ الشهر القادم . . .

ـ آه! . . . هل يمكن أن أعرف بمن ؟

ـ فتاة روسية . . .

افترقنا من دون تكلف للمشاعر . شعرت أن «ج٧» قد فقد بشاشته . لم يكن لديه على أية حال مخطط دقيق ، لأنه لم يجد مايفعله في خلال ساعة على الأقل غير التنزه في المرفأ .

لاحظ قائلاً :

ـ لقد طفناه بسرعة! الميناء بأكمله يعادل كتلة بيوت في

باريس . . . رأينا شاطئ الحصى من بعيد حيث كانت تتحرك بعض المايوهات المتعددة الألوان ، وقبالة الشاطئ الصخري كانت كتلة الكازينو البيضاء اللون ، يعلوها بيت فرنسي الطراز .

ـ أين نتناول العشاء! . . . ينبغي على أية حال أن نجد مكاناً للسيارة . اخترنا نزل سكة الحديد . تناولنا عشاءنا على مائدة الضيافة ، كان المطعم يعج بتجار مسافرين . في الساعة الثامنة ، بينما كان الليل يرخي سدوله ، ألفينا أنفسنا على الرصيف ، وهانحن من جديد في فيكامب المشؤومة .

دروب منحدرة ، سيئة الرصف والإنارة ، وساقية تسيل في منتصفها . تتبعث بعض الأضواء من المراكب الراسية في المرفأ . والأنوار الحمراء والخضراء لأرصفة الميناء . وكانت حزمة ضوء متحركة آتية من المنارة تنير كل عشر ثوانٍ شاطئاً صخرياً كامل اللون .

لم يكن هنالك أحد قرب الماري ـ غالانت . وكان المعبر قد سحب ، وهذا يبرهن على أن المركب ليس محروساً .

لاحظ صاحبي قائلاً :

ـ ماكان الخاطفون ليستطيعوا الانارة ، حتى في الداخل ، لأنهم ربما عرضوا أنفسهم لخطر المشاهدة .

مصادفة غريبة ، البيت الوحيد الذي يمكن أن نراه من هذا المكان ، المسكن الوحيد القريب كان عليه فانوس أحمر اللون ورقم ضخم . عندما ينفتح بابه المنخلي كانت تصلنا نفحات من صوت بيانو ميكانيكي .

ـ لقد مرت المرأة من هنا ليلاً . . .

تخيلت الملابس الداخلية الرقيقة والثوب الباذخ . . . لقد اختفى الحذاء والمعطف . . . لقد مشت فوق هذه الأرض الخالية .

كان أحدهم يرافقها . . . رجل أنيق مثلها ، كان يمد لها يده ، وساعدها على اجتياز المعبر ؟ أو ربما كان إنساناً فظاً جعلها تتقدم تحت التهديد ؟ . . .

حدث ذلك منذ فترة وجيزة! منذ خمسة أيام! وهاهي الماري ـ غالانت من جديد في مكانها فوق الماء الراكد . تُقب الخزان وفي المشرحة جسد مسجى فوق بلاطة .

قلت :

ـ الطقس يبرد!

كنا نسمع أصوات الصيادين الذين يدفعون زوارقهم باتجاه الأرصفة ، بضربات قوية بالمجاديف ، منتظرين أن ينفخ النسيم أشرعتهم .

هدير موج على الحصى في البعيد . . . كان الكازينو مايزال مضاءً . . .

ـ مارأيك في كل هذا ؟

نظر إلي «ج٧» . كانت عيناه متوقدتين . لم يجب بشيء . ليس إلا بعد وقت طويل حين همس بنبرة بوح :

ـ أريد رؤية المرأة . . .

كان الهواء رقيقاً . صفر قطار خلفنا ، سرنا باتجاه المدينة .

ماإن وصلنا إلى شارع «دي بيلج» حتى أمسكت يد صاحبي .

ـ انظر . . . هناك . . . في الطابق الأول . . .

كان ذلك بيت السيد مورينو ذا الأحجار الرمادية . كانت نوافذ الطابق الأول مضاءة . شاهدنا ثريا نفط حولت لتعمل بالكهرباء . . . كانت هنالك أيضاً شمعات زائفة وأقراص شمعدان .

كانت الجدران مغطاة بورق جدران مُغم أحمر غامق . لفت

نظري على أحد هذه الجدران تكبير لصورة تمثل رجلاً عجوزاً بسترة طويلة ذات ياقة عالية من سنة ١٨٦٠ .

ضحكت ساخراً :

ـ مؤسس سلالة عائلة مورينو . . .

كانت النافذة اليمنى مفتوحة قليلاً . وكان على النافذة اليسارية مجهز السفن يراقب وجبهته على الزجاج .

كلما اقتربنا كنت أسمع تساوقاً موسيقياً ، ثم صوت امرأة كانت تترافق مع صوت البيانو وتغني أغنية عاطفية .

قلت أيضاً :

ـ هذه بالأحرى ابنته!

كنت لاأزال أتخيل السيدة مورينو عجوزاً شرسة .

لم أكتشف خطأ نظرتي إلا في الساعة الحادية عشرة عندما عدنا إلى النزل بعد أن تناولنا آخر مشروب لنا في الصالة العامة التي كانت مقفرة .

كانت عاملة الصندوق شابة لطيفة ، طرح عليها «ج٧» بعض الأسئلة كعادته . عندما حدثها عن السيدة مورينو دهشت قائلة :

ـ كيف ؟ . . . ألا تعرف ؟ . . . لقد غادرت منذ عشر سنين مع شاب باريسي . . . يبدو أنها كانت أجمل امرأة في مقاطعة النورماندي . . . قيل لي إنها تعمل راقصة استعراضية في أنحاء العالم . . . وهي ليست مثل ابنتها . . .

ـ هل هي بشعة ؟ . . .

ـ لنقل انها تشبه أباها . . .

نظر إليّ «ج٧» نظرة ساخرة ووكزني بقدمه من تحت الطاولة الرخامية .

زكام «ج٧»

يعد اليومان التاليان من أشد الأيام خيبة يمكن لـ «ج٧» أن يخصني بهما ، ومن بين أشدها كآبة وقرفاً أيضاً . أؤمن بتأثير المناخ على الأعصاب ، وبالنتيجة على أوضاعنا . أشير في هذا الصدد إلى ذاك الصباح ، حين نهضت فألفيت الشمس تملأ الغرفة . لكن والنافذة مفتوحة لمحت في السماء غيوماً سريعة ، وأوشكت الريح بينما كنت أحلق لحيتي أن تكسر الزجاج مرتين .

كان الطقس صافياً . والضوء فجاً . لكن تلك النسمة المتتابعة كانت تأتي من عرض البحر وتجبر المارة في الطرقات على إمساك قبعاتهم .

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة بقليل عندما دققت باب غرفة صديقي الذي دعاني للدخول بارتخاء . دهشت لرؤيته جالساً فوق سريره وعيناه مثبتتان على اللوحة المتنوعة التي تحدها النافذة المفتوحة على مصراعيها . . .

ـ ألست مستعداً بعد ؟ .

ـ نهضت . . . ثم عدت للنوم من جديد

ليست هذه عادته ، فاعتقدت أنه يمازحني . لكنه أضاف :

ـ أعتقد أني أصبت بالزكام البارحة مساءً .

ـ وتترك النافذة مفتوحة . . .

رفعت الريح الستائر ، وجعلت أغطية السرير تخفق . لم أنتبه إلى حال نزل سكة الحديد إلى الآن ، كانت غرفتي تطل على شارع صغير تافه .

أما غرفة « ج٧ » فكان لها على العكس وضعية استراتيجية . إلى اليسار قليلاً كان الحوض حيث لمحت ماري ـ غالانت في مقدمة المنظر ، وأبعد منها الزوارق وهي تفرغ حمولتها . عندما نطل قليلاً نستطيع تمييز الأحجار الرمادية لبيت السيد مورينو ، وكان البحر الأزرق « خلفية المنظر » ، مزيّناً بحواف بيضاء اللون .

ـ ألن تنهض ؟ . . .

بلى . نهض . كان يرتدي بيجاما مخططة تجعله يبدو أطول وأنحف . سحب من حقيبته لفاعاً لفه حول عنقه .

ـ ربما حصل لي ماحصل لأني تركت النافذة مفتوحة . . .

بالرغم من شعره المشعث ووجهه المهزول ، لايعطي انطباعاً بأنه فتىً حيوي إلا قليلاً جداً . وبتعبير أدق كان يبدو وكأنه ثمل تماماً . لحد أني سألته بارتياب :

ـ ألم تخرج مرة أخرى البارحة مساءً ؟

أومأ لي بالنفي . كان يحلق لحيته .

ـ هل نخرج هذا الصباح ؟ . .

ـ لاأدري . . . لاأعتقد . . .

ـ هل أغلق النافذة ؟ . . .

ـ نعم . . . بالاحرى لا . . .

لم يرتد ملابسه . قضينا ساعة على هذا النحو . أنا جالس على حافة السرير أدخن الغليون وهو يغدو ويرجع ، تارة ينظف أسنانه ، وطوراً يرتب ملابسه الداخلية في حقيبته ، وحيناً ينشر على الطاولة أوراقاً تبعثرها الريح على الفور فوق الأرض . وكان الحديث من صنف هذا النشاط .

ـ قضية غريبة . . .

ـ نعم . . . غريبة . . .

انتهى به الأمر أن تناول قصاصة ورقية وأخذ يرسم عليها ، تملكني الفضول لرؤية ماكان يكتبه . حينها فقط أدركت أن ذهنه لم يتوقف عن العمل بينما كنت أظنه ناعساً أو مخبولاً .

رسم بالقلم الرصاص نقطة ، لابد أنها تمثل المركب في المرفأ ثم خطين صغيرين يمثلان السكر . ثم رسم حدود بحر المانش بشكل مبهم ونقطة في وسطه تماماً .

كان «ج٧» مشغولاً إلى حد عدم الاكتراث بي ، يحاور ذاته بشكل مضحك .

ـ أولاً لابد أنها أتت إلى فيكامب . حسناًا هاهي في فيكامب . . . صعدت على متن المركب . . . مضى المركب . . . مرَّ من هنا . . .

ضحكت . ثم قلدته :

ـ وفَقلت كذا ، وكذا . . .

صوب نحوي نظرة خطيرة وقال بلطف :

ـ أرهب مافي الأمر هو أني لاحقَّ لي في الفشل في هذه القضية ، هذه أول قضية يعهد بها إليَّ . . .

كان في حالة يرثى لها ، برأسه الذي يشبه ورقة مجعدة ، ولفاعه ، وبيجامته المدعوكة .

ـ اسمع! لاأجرؤ على الخروج اليوم . قل للخادمة أثناء مرورك أن تجلب لي شراباً ساخناً جداً . . . ثم اذهب إلى المرفأ واحضر لي قبطان سفينة ، أي واحد ، يعرف بحر المانش ، وهاتِ خريطة بحرية معه . . .

لم أره أبداً يباشر تحقيقاً على هذا النحو . وكأنه لاأمل له ، انتابتني طيلة مسافة الطريق مشاعر سيئة .

ساقتني الصدفة إلى سطح «الفرانسيت» ، وهو المركب نفسه الذي أعاد الماري ـ غالانت . لم أميز القبطان عن بقية رجاله ، لأنه كان يرتدي السترة الحمراء نفسها ، ونفس النعل ، وكان مثلهم يمضغ تبغاً وخده الأيسر منتفخ .

ـ من هذا الذي يريد التحدث معي ؟ . . . رجل شرطة ؟ . . . ماذا تقول ؟ . . . من الشرطة دون أن يكون شرطياً ؟

تفل لعابه على السطح . وغمز باتجاه رجاله .

ـلم لا ، أليس كذلك؟ . . . أهذا بعيد ؟ . . . أفترض أن لهذا علاقة بماري ـ غالانت ؟

ـ كيف أعرف هذا ؟ كان لدي شعور بأنهم يسخرون مني . أو بتعبير أدق أن هذه الكلمات تذكر هؤلاء الرجال قبالتي بذكريات مفرحة . أثناء الطريق ، وأنا أحاول أن تتطابق مشيتي ومشيته أردت أن أجعله يتكلم .

ـ قصة غامضة ، أليس كذلك ؟

نظر إليّ النظرة السابقة نفسها .

ـ هل تعرف شيئاً ؟

كانت مثيرة للأعصاب تلك العين التي تضحك وهي تنظر إليّ خلسة .

ـ الخلاصة ، أنت من وجد الزورق . . . ربما كانت لديك فكرة . . تفل تفلة طويلة من اللعاب باستقامة أمامنا .

ـ أفكار ، كل الناس لديهم أفكار ، أليس هذا صحيحاً ؟ . . . حتى الحمقى!

وضحك ببلاهة ، الأمر الذي أدى إلى نفوري منه .

تجنبت الاجابة حينما سألني :

ـ هكذا إذاً ، أنت موظف عند السيد الذي سنقابله ؟ . . .

خلع قبعته ونحن ندخل إلى غرفة « ج٧ » وبدا أكثر تهذيباً . حتى أنه انتزع مضغته من فمه وذهب ليرميها من النافذة .

قلت :

ـ هاهي الخارطة! السيد هو قبطان « الفرانسيت » . . .

تصنعت الانشغال بالنظر من النافذة . رأيتهما ينكبان على الخارطة البحرية . استفسر « ج٧ » عن الرموز التي لايفهمها .

تمتم القبطان الشخين الصوت قائلاً :

ـ « كوك » تعني أصداف في القعر . . . والرقم الصغير إلى جانبها يدل على العمق . . . الحرف « س » يعني رمل . . . هاهو المكان حيث رأينا الماري ـ غالانت التي بدت عنيدة كحمارة عند قطرها . . .

ـ عفواً . . . كان الوقت بعد الظهر بقليل . . . كم من الزمن كان يلزم لماري ـ غالانت لتبحر من فيكامب إلى هذه النقطة هنا ؟ . . .

ـ بالمحرك ؟ . . . ليس أكثر من ثلاث ساعات . . .

ـ بحيث استطاعت قبلاً بلوغ الساحل الانجليزي . . .

ـ أو الساحل البلجيكي . . . طبعاً ، على أية حال ، لابد أنها رست في جهة ما ، لايُعقل أن من خطفها قادها إلى عرض الماء ليرمي نفسه في البحر . . . وماكان أحد على متنها . . . وزورقها الصغير كان لايزال فيها . . .

ـ أو ربما ضربت موعداً مع مركب آخر ؟

رفع القبطان كتفيه .

ـ أليس ماتقوله غريباً ؟ تعتقد أن الناس يتواعدون هكذا في عرض البحر . . . لاسيما في بحر المانش ، حيث تجتمع شياطين البحر لتقوم بعمليات تجارة وتهريب من كل نوع . . .

ـ سؤال واحد أيضاً . . . ألا يمر من هنا قارب نقل البريد من كاليه إلى فولكستون ؟

ـ مرتين يومياً . .

ـ في أية ساعة ؟ . . .

ـ ليلاً حوالي الساعة الخامسة . . ثم الساعة الرابعة بعد الظهر . .

رأيت «ج٧» يتردد ، ويلامس محفظته ، وينتهي به الأمر إلى دس ورقة من فئة الخمسين فرنكاً في يد البحار .

ـ أشكرك . طبعاً ، أنت لاتعرف شيئاً ؟

ـ ماذا كنا سنعرف ؟

لكن عينه كانت تضحك ، أدرت رأسي رافعاً كتفي . عندما نظرت إلى الغرفة من جديد كان «ج٧» وحيداً ، منكباً على الخارطة البحرية ومشغولاً برسم خيال امرأة عبر مضيق «بادي كاليه»

سألته بدماثة :

ـ أليس هنالك جولة أخرى ؟ ربما تستطيع الذهاب للاتصال من الأسفل ومعرفة إن توصلوا إلى هوية المرأة . . . وبالمناسبة! اسأل إن كان السيد مورينو قد ذهب لرؤيتها ، سواء على ظهر المركب أم في المشرحة .

رجعت بعد بضعة دقائق وسردت له بأسلوب برقي :

ـ لم يتم التعرف على المرأة . . . خرج مورينو من بيته . . . لم يرَ الجثة . . .

لكني ماكنت أمزح إلا لأستر نفاد صبري . شعرت أن صديقي يخوض في الوحل . وكلما ازداد تفكيري بهذه القضية بدت لي غير قابلة للحل . وبالاضافة إلى كل هذا هناك ذلك الزكام الأحمق الذي يحبس صديقي في غرفته!

بقيت ساعة ونصف على الأقل عند نافذتي ، دون أن أسمع إلا حفيف قلم الرصاص يخط إشارات مجهولة على الخارطة ، على طريقة التلاميذ الكسالى .

أخيراً بلغني صوت صديقي :

ـ قل لي . . .

ـ ماذا ؟

ـ لابد أن آل مورينو لديهم خادمة . . . حاول أن تراها لتعرف إن كان مورينو في بيته ليلة اختطاف مركبه . . .

فكرت بهذا أيضاً . وحتى أني حبكت رواية كاملة من هذه الفكرة . عندما التقى مورينو بامرأته من جديد ، أراد الانتقام منها ، اصطحبها إلى عرض البحر وحبسها في الخزان .

قصة غير متماسكة . أولاً لأن الماري ـ غالانت عادت ولاأحد

حي على متنها . ثم لماذا يخترع مجهز السفن كل هذه التعقيدات ولماذا خاصة ينطلق إلى عرض البحر ، الأمر الذي يتطلب ليالٍ عديدة لإصلاح المحرك ؟

هذا الإصلاح وحده يتطلب شريكين على الأقل . . .

الريح دائماً! الشمس تشع على الخزانة ذات المرآة . «ج٧» في بيجامته المخططة ، ولفاعه ، وأنفه الأحمر ، كانت له هيئة تلميذ معاقب!

بدأت بالتجوال على الرصيف ناظراً إلى بيت السيد مورينو بنوافذ طابقه الأرضي المضاعفة بزجاج أخضر . وتلك الحروف الخزفية البشعة التي تعلن : مورينو الابن ، مجهز سفن .

تخيلت خلف الفتاة العانس الموظف المحشي بالقش ، وفي مكتب العمق مجهز السفن بذاته . بصلعته وثيابه السوداء . بعد ربع ساعة رأيت فتاة حولاء تخرج من البيت ، تحمل سلة مؤونة تحت ذراعها .

هذه هي الخادمة طبعاً! كانت تمشي باتجاه الشارع الأكثر ازدحاماً بالبائعين في المدينة . كنت ألاحقها من مسافة عدة أمتار ، وانتهى بي الأمر أن استجمعت شجاعتي .

ـ عفواً ياآنسة . . . هل تسمحين أن أطلب منك معلومة ؟

نظرت إلي مذهولة أوشكت أن أضع في يدها قطعة نقود من فئة العشرين فرنكاً ولاأعرف ما الذي منعني

ـ هل تستطيعين أن تقولي لي إن كان السيد مورينو قد خرج يوم الأربعاء مساء ؟

ـ لايخرج أبي مساءً أبداً . . .

انقطع تنفسي ولم أعد أعرف أين أنظر .

ـ اعذريني . . . أنا . . . لقد . . .

ـ لماذ لم تسأله هو نفسه ؟ أنت موظف المحقق ، أليس كذلك ؟

لاأعرف كيف انسحبت . أعتقد أني بعدها بقليل كنت أكلم نفسي ماشياً . لن أجرؤ حتى على البوح بكل الأفكار التي تدور في رأسي ، هذا كابوس أكثر منه واقع .

لكن ، بمناسبة الحديث ، ألا يتشابك الواقع مع الكابوس ؟ . . هذه المكاتب المخضرة ، والفتاة العانس والموظف السمين . . . الموسيقا التي كنا نسمعها البارحة ، والآنسة التي كانت ترافق عزف البيانو مستحضرة مساءً جميلاً رومانسياً .

كانت هي ذلك المخلوق البشع الأحول!

وبالمقابل الماري ـ غالانت ، مع الجثة في الخزان . . . . الملابس الداخلية الرقيقة . . . وأتذكر القميص المجعد تماماً . . .

حتى «ج٧» المزكوم الذي يحرس الغرفة ولفاعه حول رقبته .

لم أكن أنظر أمامي فاندفعت بكامل جسمي إلى صدر رجل واسع ، أعاد لي توازني بيده الخشنة . كان هذا قبطان «الفرانسيت» . تعرفني . ومرة أخرى تلقيت نظرته الساخرة .

عندما رجعت إلى النزل ، كانت حكاية أخرى تنتظرني اندفعت الخادمة قبالتي .

ـ عفواً ، سيدي . . . طلب مني صديقك ألا تزعجه . . . لديه زيارة . . . هل أعد لك المائدة في الصالة ، أو تأكل فوق مع صديقك ؟

ـ لاأعرف . . . اجلبي لي كأساً من الكحول مع الماء . . .

كنت وحدي في المقهى . عاملة الصندوق لم تكن وراء

صندوقها . مكثت هنا ساعة ، ساعة كاملة ، أعاني ملل انتظار . ذهبت بي الظنون إلى الشك في أن «ج٧» أبعدني ليستقبل امرأة .

سمعت وقع خطا على الدرج . حدقت إلى الدرجات الأخيرة منه رأيت شاباً ينزل ، يكاد يبلغ العشرين ، مستطيل الوجه ، شاحباً تماماً ، متوقد العينين ، أحمر الشفتين كامرأة .

اجتاز المقهى خافض الرأس ، وصل إلى الطريق فأسدل قبعته اللبادية السوداء على جهته .

اليوم الثاني

ـ من كان عندك ؟

كانت الخريطة ماتزال على الطاولة ، ملطخة بخطوط قلم الرصاص التي جعلتها غير مقروءة . وأجابني «ج٧» الذي كان يرسم دون أن يرفع رأسه :

ـ ابن مورينو بالطبع .

ـ ماذا جاء يفعل ؟ . . . لابد أن الأمر كان من الأهمية بحيث كنت زائداً . . .

تنهد قائلاً :

ـ يالهؤلاء الفتيان ، إنه خجول جداً! . . . فتى مسكين! لم يمض على وجوده ساعة حتى انفجر باكياً . . .

أقسمت بشرفي ألا أطرح أسئلة .

ـ شخص عصبي . . . لابد أنه تلقى تربية صعبة . . . ليس قوياً . . . وينغلق على نفسه لأقل كلمة . . لم أفهم في البداية سبب زيارته . . . لم يعبر عن نفسه صراحة . . طلب مني أن أخبره عن هوية الميتة . .

«قلت له إننا لانعرف بعد فتحايل ، وكأنه يريد أن يزل لساني . .

«أدركت مراده أخيراً . . . يريد أن يعرف ماإذا كانت الجثة جثة أمه . . . ضيقت عليه الخناق . . . وكان مجبراً على الاعتراف بأن أباه منعه من الذهاب إلى المشرحة . . .»

ـ مورينو يمنع ابنه من الذهاب إلى المشرحة ؟ . . . ويحرص ألا يذهب إلى هناك هو نفسه! . . لكن . . .

قاطعني «ج٧» قائلاً :

ـ أبداً! لم تمضِ أربع وعشرون ساعة على وصولنا إلى فيكامب . والناس كلهم يعرفوننا . عاشت السيدة مورينو هنا سنوات طويلة . لقد مرت المدينة كلها هذا الصباح على المشرحة ولم يتعرفها أحد . . . فأكدت للفتى ، واسمه فيليب ، أنها ليست أمه . . .

قلت :

ـ هذا محتمل!

ـ هذا أكيد! حتى لو كانت مشوهة ، فلابد أن يتعرفها أحد . . . طمأنته هذا . . . أراد المغادرة . . . لكنني تابعت استجوابه . . . إنه سهل التأثر إلى حد رهيب . . . وفعلت به ماأريد بعد خمس دائق . .

«حينها طلب متوسلاً ، إن أمكن ، أن أحاول معرفة مكان أمه عندما أجد قليلاً من الوقت ، . . . كان مؤثراً . . . وقال لي إنه قد لا يستطيع أن يدفع لي . . .

«اعتراف كامل ، ياللعجب! . . . الأب مورينو الممسوس يجعل الناس كلهم يرتجفون . . . إن لم يجد أطقماً لقواربه فإن سمعته هي السبب . . .

«رجل بخيل! . . . بخيل إلى حد الإفراط والمرض . . . وليس في البيت خدم . . . » .

ابتسمت ابتسامة استعلاء لكن «ج٧» لم يلحظها فأخفقت في تأثيري .

ـ ظل الفتى يرتدي حتى سن الخامسة عشرة ثياب أبيه القديمة بعد إعادة تفصيلها . . . وفي السادسة عشرة وضعه في أحد البنوك بحجة تعليمه فن الحياة . . . ومازال فيه حتى الآن عمره عشرون عاماً . . . يتركون له فرنكين لعطلة يوم الأحد! يراقبون كل ذهاب له وإياب ، وإن رؤوه مرة في الكازينو بصحبة فتاة ما من البلد ، يحبس في غرفته ثلاثة أيام . . .

«بالنسبة للأم يمنع الحديث عنها ، وذكر اسمها ، والتلميح بذكره . . .

«ليس هذا كل شيء . . . الأب وابنته متفاهمان جيداً . . . وهناك ماهو أفضل من هذا! الابنة مع الأب ضد أخيها ، وهي التي تشي به عندما يرتكب خطأً . . .

«لم يستطيعوا العثور إلا على موظفين اثنين : العانس التي يبدو أنها المخلوق الأشد إثارة للتقزز في الدنيا ، والآخر ، ذاك الذي رأيناه ، وليس فيه إلا عيب واحد : يتعرض من وقت لآخر لحالات فقدان الذاكرة .

« يتقاضى الاثنان رواتب ضئيلة . . . وهذا هو الشيء الوحيد المكلف في البيت . . .

«يريد فيليب الرحيل منذ سنة . . . لايجرؤ . . . يشعر بذعر مرضي من أبيه . . . حلم حياته الأكبر هو أن يعلم مكان أمه ويلحق بها .

« كوّن عنها صورة مثالية . . . وخصها ـ تلك التي لم يرها منذ خمس عشرة سنة ـ بكل مودته . . .

« لايعلم حتى فوق أي قارة تعيش . واعترف لي وهو ينشج باكياً أنه ربما لن يتعرفها لو التقى بها في الشارع . .

« وهناك ماهو أفضل من هذا : عندما يلمح أجنبية بين الخامسة والثلاثين والأربعين ينظر إليها نظرة من أصيب بدوار بأمل أن تأتي هي لتكلمه . . . »

يسود الصمت . نسمع الجرس الصغير في الأسفل معلناً طعام الغداء على طاولة الضيافة .

ـ هذا كل شيء! وعدته أن أعثر على أمه . وكان عليَّ أن أمنعه من تقبيل يدي .

لاأريد الحديث عن فترة مابعد الظهيرة . لنتخيل رجلين في هذه الغرفة العادية ، حيث استمرت الخزانة ذات المرآة في كونها مستطيلاً بشعاً مضيناً . و « ج٧ » في بيجامته تارة يجلس وطوراً يمشي ، ثم يتمركز من جديد أمام خارطته البحرية .

لم أبنِ في دماغي حبكة درامية واحدة . بل عشر ، ومائة حبكة مأساوية! وهي الأغرب والأشد تناقضاً .

ذهب بي الأمر إلى حد جعلت فيه السيدة مورينو ضحية! وابنته الحولاء بطلة جديرة بالأزمنة الغابرة!

لم يكن « ج٧ » يتكلم . كان يتناول أقراص الاسبرين . كنت أنظر إلى الماري ـ غالانت التي يتوقف المارة قبالتها لحظة . وكنت أعرف الحوار .

ـ هذا هو المركب الذي ر حل بمفرده الأسبوع المنصرم .

ـ وأين كانت الجثة ؟

ـ هنا ، في المقدمة في الخزان . . .

وكان هنالك فتى بعد الظهيرة لم يجد أفضل من أن يجثو فوق الصاري المائل ليصيد السمك بالصنارة .

كنت ألقي أحياناً جملة قصيرة لأعرف رأي صديقي .

ـ ماذا يمكن أن يفعل المفوض لوكاس في هذه الساعة ؟

لكنه لم يكن يسمع . أولايريد أن يسمع . نزلت في الثامنة لتناول العشاء . عندما عدت في التاسعة والنصف مثقلاً بثلاث كؤوس من الكحول كنت قد ابتلعتها بعناد سكير كئيب ، كان نائماً .

ـ هل تحسنت ؟

ـ لاأدري . . . نمت نوماً سيئاً .

حلق لحيته . لكنه لم يكن يبدو راغباً بارتداء ملابسه والخروج لاحظت مع ذلك أنه لم يعد يتمخط قط ، ولم يعد يسعل مطلقاً .

ـ ألا تريد الاتصال بلوكاس لتعلم إن تم التعرف على الجثة ؟

ردّ علي لوكاس بمرح ، ربما احتجاجاً على واقع الأمور .

ـ حسناً ؟ . . كيف حال المتكتم «ج٧» ؟ هذه فرصة لامثيل لها ليتميز بتفوقه على الشرطة الرسمية . . . فرصة ثمينة! ومربحة! . . . باريس لا تعرف المرأة المقتولة . . . لم يتعرفهاأحد . . . باختصار ، غموض تام . . . ماذا يفعل هو أثناء ذلك الوقت ؟ . . .

ـ يعالج زكامه!

ضحكة رنانة على الطرف الآخر من السماعة .

ألححت :

ـ أقسم لك . . .

ـ هذه نكتة جميلة! . . . هل وجد معلومات هامة ؟ قل له ألا يكون خبيثاً معنا ، ها! . . . كلٌ يفعل مابوسعه ، لكن لديه حرية حركة تختلف عن تلك التي للشرطة الرسمية . . .

ـ أقسم لك أن «ج٧» لم يترك غرفته منذ أول أمس مساءً . . . قهقهة من جديد .

ـ هيا . . . إلى اللقاء . . . على كل حال ، هنا لاشيء جديد . . . لاشيء أبداً . . . ولاحتى دليل صغير! . .

كنت أوشك على الغضب عندما التقيت «ج٧» من جديد وكان يقلب الخارطة البحرية مشغولاً برسوم جديدة على ظهرها .

قلت له مشيراً إلى رسمة مبهمة :

ـ ماهذا ؟

ـ بيت شارع «دي بيلج» . . .

ـ وهذه ؟

ـ الماري ـ غالانت . .

ـ وهذا ؟

ـ فيليب المسكين على وشك البكاء . . . وهذه الفتاة التي كلمتها في الطريق . . .

جعلني الغضب أبكم .

ـ يبدو لي أني سمعتك البارحة تقول إنه لابد مهما كلفك الأمر من أن تنجح في هذه القضية . .

ـ أجل . . . وقال بلطف وكأنه طفل يتلقى توبيخاً :

ـ أعترف أن الطريقة جديدة . . .

كان حينها مثيراً للشفقة ، أو مهرجاً فاشلاً إلى أبعد الحدود .

تنهد قائلاً :

ـ رأسي يؤلمني! لم أعد أجرؤ على التفكير في هذه الحكاية على قدر مايؤلمني رأسي منها . . .

وكرر معانداً وهو يرسم بقلمه نقاطاً من تلك الرسوم غير المقروءة :

ـ وصلت . . . أبحرت . . . كان المركب هنا . . . وعاد إلى النقطة نفسها مع الجثة . . .

ـ وماذا بعد ؟ . . .

ـ لاشيء! . . .

أعتقد أننا كلينا مغتاظان . هذه الحياة بين أربعة جدران غرفة لم تكن ملائمة لصداقتنا .

قلت :

ـ هناك مع ذلك أناس يعرفون ؟

ـ من هم ؟ . . .

ـ القتلة ، على أية حال! . . . على الأقل اثنان . . . حسب رأي البحارة ماكان المركب ليستطيع الخروج من المرفأ إلا وعلى متنه اثنان . . . وهذان الرجلان ، أين هما ؟

ـ هذا لايهمني . . .

ـ ماذا ؟

ـ أقول إن هذا لايهمني . . .

ـ وما الذي يهمك ؟ . . .

تجول في أنحاء الغرفة . توقف قرب النافذة ، انحنى كما لو أن شيئاً ما يثير اهتمامه .

ـ قلت :

ـ أنا أنتظر!

نفخت الريح بيجامته وأعطته شكلاً مضحكاً . ارتفعت الخارطة عن الطاولة ثم انزلقت ، وانتهى بها الأمر إلى السقوط فوق البساط .

ـ حسناً ؟

ـ خطة . .

كانت النافذة ضيقة جداً بحيث لاتتسع لنا معاً . كان صبري ينفد . أوشكت أن أكرهه . أما كان يعرف كيف يسخرني للقيام بأعماله عندما يتعلق الأمر بعمل كريه كإيقاف امرأة في الشارع ، وتشاء المصادفة أن تكون هذه المرأة ابنة السيد مورينو دون أن أعرف ذلك ؟

قال «ج٧» برضا :

ـ لقد أتى إلى هنا . .

ـ من ؟ . .

ـ هو ، عجباً!

ـ لكن . . .

ـ مورينو . . . هاهو يتردد منذ دقيقتين ، ويدور حول النزل متسائلاً أيدخل أم لا . . . هاهو يدخل . . . في هذه اللحظة لابد أنه على الدرج . . .

ـ ربما ينبغي أن أخرج ؟

ـ ليس إلا إذا أمرتك بذلك . . .

دُق الباب ، إنه مجهز السفن بعينه ، ببزته السوداء ، وياقته المستعارة المصنوعة من السيلولويد ، ورأسه السميك الواضح المعالم في الوقت ذاته .

ـ هل أنت مريض مثلما قيل لي ؟

ـ من قال لك ؟

ـ الناس كلهم . . . فيكامب ليست باريس . . . يعرف فيها كل شيء . . .

كان يبدو يشم الهواء ليجد فيه لاأعرف أية رائحة .

ـ التحقيق لايتقدم طبعاً . . . الشرطة الرسمية لاتعرف شيئاً . . . ولم تخرج أنت من هنا . إن رؤية هذا الرجل وهو يحاول التنكر بهيئة الطفل الطيب مضحكة ومزعجة في آن واحد .

تابع قائلاً

ـ أنا آسف . . . الإخفاق في قضية مزعج دائماً . . . أنا من كان على خطأ . . . كنت أود الانتهاء منها بسرعة . . . وبدلاً من ذلك أثرت خيال الناس . . .

جعلني «ج٧» أفهم وهو يدوس فوق قدمي أن وجهي كان معبراً بشكل مبالغ فيه .

ـ . . . حتى فيليب المسكين . . . هكذا قيل لي . . . أرجو أن لاتنكر . . . هناك على أية حال أشياء ينبغي أن تعرفها . . . إن عقله ضعيف كأمه . . . وهي امرأة تعيسة ، التقطتها من الشارع . . . كنت أفضل ألا أتكلم عن هذه الأشياء . . . أكد لي الأطباء أن ابني سيشفى . . . ماذا يمكن أن يكون قد روى لك ؟

لم أجرؤ على النظر إليه خوفاً من أن أرتكب حماقة بمجرد أن ألقي عليه نظرة . كنت أحدق بـ «ج٧» .

ـ أراد أن يعرف فقط إن كانت أمه تلك التي قتلت . . .

رفع السيد مورينو عينيه إلى السماء كرجل يتعرض لمحنة مريرة وينتظر الأسوأ .

ـ صغيري المسكين . . . تلك أعراض جنون الاضطهاد ، كحال

أمه . . . خاطرت بنظرة . كان السيد مورينو يائساً حقاً . وحتى ياقته المستعارة أصبحت الآن أقل غرابة .

ـ عندما أفكر أنه يستطيع لهذا السبب الهرب جدياً . . .

أجابه «ج٧» :

ـ ولايرجع باحثاً عن أمه مثلاً .

حينئذ أجاب السيد مورينو وعيناه تحملقان دهشة ، ويده فوق صدره :

ـ لكن أمه ماتت منذ ثلاث سنين في حدث بشع جداً ، في بريـن . . . عثروا على ستة أشخاص مختنقين في بيت عازب ، أو بالأحرى متسممين من تعاطي مخدر رديء النوعية . . . كانت بينهم فتاتان قاصرتان . . . أحد الرجلين كان قاضياً . . . انتهت القضية بالحفظ . . .

أقسم أني هذه المرة كنت على وشك الصراخ من القلق أو الغضب ، على قدر ماكان الاحساس بالكابوس عنيفاً .

أما «ج٧» فقد انتابته نوبة سعال لانهاية له .

الباب المقفل

كان منحنياً . ويبدو عاجزاً عن التقاط نفسه ، تمتم بصوت مبهم :

ـ هل تسمح لي بلحظة ؟

كان على العتبة ، أغلق الباب وراءه . لاأعرف لماذا بدا لي أن صوتاً غريباً صدر منه . لابد أن ذلك كان شعور السيد مورينو أيضاً ، لأنه نظر إليّ بقلق .

قلت :

ـ سوف يعود . . .

عندما تكون الأعصاب متوترة إلى هذا الحد ، فإن أقل شيء ، كلمة ، انحناءة ، هبة ريح ، يتخذ قيمة خاصة . أعجز عن تفسير سبب إحساسي بالحاجة للمس الخشب* وأنا ألفظ عبارة « سوف يعود » .

---

* محاولة لتجنب القدر السيء . من المترجم .

سألني صاحبي بصوت محزن :

ـ هل أنت في خدمته منذ وقت بعيد ؟

ـ نعم ، منذ فترة!

ـ لكنه كان في الشرطة القضائية منذفترة وجيزة جداً! هذا ماأعلنه على الأقل في نشرته الدعائية . .

أي مكيدة يدبر لي ؟ ولماذا هذه النظرات المواربة ، وكأنه يريد أن يباغتني ؟ سحب فجأة ساعته من جيبه ، كتلة ضخمة من الفضة يرجع تاريخها إلى ثلاثين سنة على الأقل .

ـ هل تعلم أنه غادر منذ عشر دقائق ؟ ربما أغمي عليه . . .

حينئذ انتابني حدس . تذكرت الصوت الغريب للباب . اقتربت أدرت قبضته . كان مقفولاً بالمفتاح!

ـ سألني السيد مورينو في اللحظة نفسها ، والذي لم يلاحظ الأمر :

ـ هل ستخرج ؟

ـ أنا . . . لا . . .

ـ أنت شاحب تماماً . . .

ـ هذا يعني أني . . . أنا . . . لا ، أقسم لك . . .

لابد أننا كنا كمجنونين أو كمتآمرين ، كان يراقبني ، وأراقبه .

أراد الاقتراب من الباب . فتشت يائساً عن حيلة لأمنعه من فعل ذلك . لأني أدركت الآن أن خروج «ج٧» كان بغية حبس مجهز السفن .

صرخت وأنا أنظر من النافذة :

ـ وي!

كانت الحيلة حمقاء! لم يكن هنالك إلا زورق يدخل المرفأ وكان هذا الأمر أقل من أن يهتم له صاحبي ، الذي اكتفى بأن همس :

ـ زورق « تونير دي بريست » . . . يعلن عن وصوله . . . يحمل خمسمائة طن من سمك الرنكة الذي سيؤدي إلى خفض الأسعار .

ومشى صوب الباب .

ـ رئيسك « ج٧ » يقلقني . . .

قلت :

ـ انتظر! أنا . . . أعتقد . . .

صار لونه ، ليس شاحباً ، بل أصفر كلياً . حاول فتح الباب . ولاحظ أنه مقفل بالمفتاح .

سألني وهو ينظر إليّ بعينيه الصفراوين :

ـ ماذا يعني هذا ؟

ــ لاأدري . . . لابد أن « ج٧ » قد أدار المفتاح بحركة لاواعية . . . على أية حال هو ليس بعيداً . . . لايستر جسمه إلا بيجاما . . .

ساورتني الشكوك دفعة واحدة . لم أفهم بعد ، لكني قمت بمقارنات . هذا الزكام الذي ماكان مفهوماً إلا قليلاً ، والذي بسببه لازم « ج٧ » غرفته بخجل وهو الأقل نعومة من الشباب الذين عرفتهم! . . . هل كان مزكوماً حقاً! . . . ونوبة السعال المصطنعة هذه . . . وهذا الخروج وهذا الباب المقفل .

قال السيد مورينو :

ـ ينبغي أن ننادي أحداً! . . . لانستطيع البقاء مسجونين هنا . . .

ـ نحن في الطابق الأول . . . لن يسمعونا . . . وإن سمعونا! سيستنتج الناس من هذا الحادث نتائج مزعجة . . . أعتقد أن من الأفضل انتظار «ج٧» . . .

انحنى حينئذ على النافذة وحاول رؤية بيته . بدأت أتهلل . أتتني فكرة ، كنست معظم قلقي :

عاد «ج٧» إلى طبيعته ، وبدأ العمل بدلاً من جر خفيه ولفاعه في غرفة النزل!

فكرت حينئذٍ :

ـ مع ذلك لم يرتدِ ملابسه!

وتملكتني هواجس جديدة . هل «ج٧» هو من أقفل الباب ؟ ألم يكن ضحية كمين ، وأراد خاطفوه منعنا من ملاحظة ماجرى بسرعة ؟ . . .

فكرت :

ـ لنا القياس نفسه . . . وهو يعرف أن لدي بزة في غرفتي . . .

ـ لاأحبذ في الواقع تصرفات رئيسك! هكذا دمدم صاحبي ، الذي بقي أصفر اللون ، بينما صارت جيوب عينيه أشد عمقاً ، وهي دلائل على مرض في الكبد .

تابع قائلاً :

ـ أنا من يدفع . . . طالما يعمل في هذه القضية ، فهو بحال من الأحوال موظف عندي . . . ينبغي أن ننادي أحداً حتماً . . . لانستطيع البقاء في هذه الغرفة .

رنين جرس الهاتف في الأسفل جعلنا نصيخ السمع . سمعت بشكل مبهم وأنا ملتصق بالباب :

ـ نعم ياسيدي . . حالاً ياسيدي . . . عند السيد مورينو ، نعم! . . .

وقع خطوات على الدرج . نقرة على الباب

قلت لأني تعرفت خطوة الخادمة :

ـ أديري المفتاح!

ـ كيف! أنتما محبوسان ؟

ـ لايهم! افتحي . . .

نظرت إلينا بقلق غامض ، وعانت من بعض المشقة لكي تتمالك نفسها .

ـ أسألكما المعذرة . . . لقد صعدت الدرج بسرعة . . . اتصل السيد «ج٧» للتو . . . يطلب منكما اللحاق به عند السيد مورينو . . .

ـ كيف ؟ . . . في بيتي ؟

انتصرت . . . لم أعرف شيئاً بعد ، لكنني انتصرت! . . . ماكان «ج٧» مزكوماً أكثر مني . . . لقد لعب لعبته . . . هو من أقفل الباب . . . والآن ينتظرنا عند مجهز السفن . . .

رأيت هذا الأخير يتغير بشكل واضح للعيان ، كان قبيحاً بطبيعته . . . لقد ضعف حين رأى نفسه قبل قليل حبيساً . . . أما الآن فالأمر كالتكبة . . . أصبحت بشرته الصفراء أشد رخاوة ، وصار رأسه يشبه رأس الضفدع تماماً .

ـ ماذا يعني هذا ؟

كنت مصمماً ، إن حاول الهرب ، أن أقوده إلى بيته مهما كلف الأمر . نظرت إليه بحزم .

ـ سنعرف حالاً . . ليس علينا إلا أن نقطع مسافة مائتي متر .

نسي قبعته فوضعتها في يده .

ـ لم يذهب رئيسك مع ذلك إلى الشارع بالبيجاما . . .

سخرت قائلاً :

ـ أنت تعرف ، هو ليس بالرجل الأنيق . . .كنت فرحاً! كانت هذه راحة عظيمة ، بعد يومين من القلق الصامت ، والضيق المبهم .

أتخيل نفسي مجدداً وأنا مع السيد مورينو قبالة باب بيته . تردد في الدخول . بدأ بالدخول أولاً إلى المكتب .

سأل العانس :

ـ أين الشرطي ؟

ـ لكن . . . في الأعلى . . . في الشقة . . . أنت أرسلته لجلب أوراق نسيتها ، أليس كذلك ؟

كانت عيناه جاحظتين .

انفجر ساخطاً :

ـ وهو بالبيجاما ؟

أجهل كيف استطعت منع نفسي من الانطلاق في ضحكة صاخبة . أما العانس والموظف السمين فلم يصدقا مايسمعان . كانا يحملقان بجهز السفن بذهول غير مصطنع .

ـ لكن لا! . . . إنه يرتدي ملابس كجميع الناس! . . .

ـ لن أدع الأمر يمر ببساطة! . . . سنرى . . . الآنسة فوق ؟

ـ لكن لا ، لأنك قلت لها أن تلحق بك إلى المحطة . . .

ـ أنا ؟ . . . أنا ، قلت لها . . .

ـ عن طريق السيد «ج٧» . . . فغادرت حالاً . . .

ـ بحيث بقي وحيداً ؟

واندفع على الفور إلى الدرج حيث تبعته . لم يفتح باب غرفة

الطعام أو المطبخ أو الصالون ، بل باب غرفته الخاصة التي تطل على باحة كئيبة .

نادراً مارأيت رجلاً في حال انفعال قصوى مشابهة . توقف لحظة قبالة السرير ، نظر حوله ، ثم دفع باندفاعة واحدة باباً كأنه باب حمام .

حينئذ سمعت صوت صديقي الهادئ الرصين الذي كان يتحدث لأعرف مع من :

- أعتقد أنهما هما . . .

ثم بالبزة نفسها دائماً :

- تفضل بالدخول سيد مورينو أنت لست زائراً . . بل على العكس!

في اللحظة التالية ، لمحته ، متكئاً على الجدار مرتدياً بزة لي ، بزة من الصرج الأزرق كانت مع ذلك واسعة قليلاً عليه . كانت ابتسامة مكبوتة ترتسم على طرف شفتيه . وغمز لي بطرفه إلى سرير ضيق على حافته امرأة جالسة

- ليس هنالك للأسف كراس لتجلسا .

ابتهجت . أتخمت من المشهد الذي مثله مجهز السفن برأسه البرماني الذي كان يبدو على وشك أن ينفّس مثل بالون منتفخ وُخز بدبوس .

الحمّام

التفاصيل التي سوف أسردها لم ألحظها إلا بتسلسل المشهد الذي جرى حينئذ ، لكنني أرى أن من الأفضل سردها جملة ، لكي أكوّن فكرة عن الجو .

كان الحمام زاوية مخفية من تلك الخلوات التي لانزال نجد مثيلتها في البيوت القديمة . عرضه متر ونصف وطوله متران إلا قليلاً . لانافذة له . كان يصله ضوء شحيح عبر كوة مفتوحة على غرفة نوم السيد مورينو ، لكن ألصقت في هذه الغرفة قماشة داكنة على الكوة ، بحيث يغرق الحمام في ظلام دامس تقريباً إذا كان الباب مغلقاً .

حتى إن كان الباب مفتوحاً ، كما كان الحال في هذه اللحظة لم نكن نتمتع إلا بضوء نادر ، عديم الوهج تأثيره مثبط للمعنويات . ماذا قلت ؟ إن مكتب الحوض المائي في الطابق الأرضي بنوافذه الخضراء ، كان البهجة بعينها مقارنة مع هذه الخلوة!

سرير من شرائط جلدية . حتى في الجيش ، تغطى هذه الأسرة بفراش . لكن هنا لاشيء من ذلك . بمثابة عدة السرير هناك غطاء

قطني واحد يميل لونه إلى الرمادي ، لابد أن قيمته خمسة عشر فرنكاً ، وفيه ثقوب .

لا أبالغ . ولا أسود الأمور بدافع من ذوق مرضي إلى الشؤم . نادراً ماعرفت وسطاً مكدراً كهذا .

هناك إبريق مطلي بالميناء في عمق الحمام ، لابد أنه يحتوي ماءً . وهناك صحن وقطعة خبز وبقايا سمكة رنكة مدخنة فوق كرسي من القش .

وأخيراً ، كانت هنالك امرأة ، امرأة رائعة ، يتناقض وجودها مع كل مايحيط بها ، متفتحة تماماً! يتراوح عمرها بين الخامسة والثلاثين والأربعين . لكنها لم تتأثر بالسن . ليس فيها أية ندبة من سمات النضج . ولا أية علامة على بدء الانحطاط! بل على العكس!

لحم بض ، حيٌ دون زيادة . بشرة ذهبية . شعر أشقر ملتهب . وسحنه براقة خاصة بالشقر . وعينان كان يبدو وكأن شذرات من الذهب الأصهب تتغلغل فيهما .

كانت هنا على حافة السرير منحنية على ذاتها قليلاً . ولم يكن يستر بدنها إلا ثوب من الحرير ، يتنافر بهاؤه القديم مع الديكور .

وبصوت رقيق لرجل من المجتمع الراقي عرّف « ج٧ » أحدنا بالآخر :

ـ السيدة مورينو . . .

ماجذبني أكثر فيها كان الازرقاق حول جفنيها ، لون أسمر قاتم يضفي عليها هالة من الألم والغموض .

ـ ألا تفضل أن نذهب إلى الصالون سيد مورينو ؟ . . .

لم يجب ، ولم يتحرك .

ـ حسناً . . . لنبقَ هنا! . . . على أية حال كان لدى السيدة وقت كاف لتعتاد على شظف العيش في هذه الغرفة .

واستطرد متوجهاً نحونا أنا ومجهز السفن :

ـ الأمر الذي صدمني أكثر من غيره في هذه القضية ، هو بالضبط أنني كلفت بها . . . لأننا لسنا في انكلترا ، ولا في الولايات المتحدة ، حيث لجوء المواطنين إلى المحققين الخاصين أمرٌ شائعٌ ، ويومي ، وطبيعي . هذه المهنة عادية هناك شأنها شأن خبير المحاسبة أو المهندس المعماري . هل تسمحين لي بالتدخين ياسيدتي ؟ . . .

أشعل لفافة تبغ ، رآها تحدق بالعلبة باشتهاء . فمدها إليها . حينئذ ، وبينما كانت تستنشق الدخان بشراهة ، تابع قائلاً :

ـ عندما يتوجه أحدهم في فرنسا إلى وكالة بحث ، فإن الأمر يتعلق بقضية لاتهم الشرطة الرسمية . . . كملاحقة امرأة يشك زوجها في سلوكها ، أو زوج لاتثق امرأته به . . . بحث عن مجوهرات سرقها خادم لايريدون تسليمه إلى القضاء ، أو بعض قضايا مواريث ذات دقة خاصة . . .

«لكننا في فيكامب . . . مدينة في أقاصي الريف لم تطأها قدم محقق خاص مطلقاً . . . السيد مورينو نموذج البورجوازية المحلية . . عندما استدعاني كانت الشرطة الرسمية قد تحركت وتقدمت في تحقيقها كثيراً .

«لاحظوا أخيراً أنه لم يتوجه إلى واحدة من ثلاث أو أربع وكالات باريسية معروفة منذ زمن بعيد ، نجد عناوينها على الصفحة السادسة من كل صحيفة يومياً .

«بل اختار وكالة جديدة ، محققاً حديث العهد . . .

«إنه الرجل المعروف ببخله في البلد كله! . . . تعمل الشرطة مجاناً من أجله ، وتضع تحت تصرفه أكمل جهاز ممكن . . . مع ذلك يضحي بخمسة وعشرين ألف فرنك ، ويعين في مكان الجريمة شخصاً لايعرف عنه شيئاً ، إلا أنه شاب وربما قليل الخبرة . . .

«هذه هي القاعدة التي بنيت عليها تحقيقي . . .

وقال مستديراً نحوي :

ـ ألاتريد أن تفتح نافذة الغرفة المجاورة ؟ ينقصنا الهواء هنا . . .

نظرت إلى مجهز السفن ، كان يستند بكتفه إلى الحائط ، ويرمق «ج٧» بعينيه الصفراوين ، وتدل هيئته على استعداد للقيام بعمل شرير .

ـ وصلت! بيت بورجوازي! ليس بالمعنى المجازي المريح والمفرج للكربة للكلمة ، إذا استطعت القول بل بمعناها الأكثر بشاعة . . غرف من دون هواء وضوء . . غموض يعم المكان منذ باب المدخل . . . وكأنهم يقولون لي إني لن أجد شيئاً وشعرت بوضوح أنهم يتمنون ألا أحقق أدنى اكتشاف . . حينئذ تساءلت عن سبب استدعائي . . فكرت . . ليس من عادة الشرطة الرسمية إطلاع الناس وحتى الضحايا الذين تعمل من أجلهم ، على خطواتها واكتشافاتها . . بالمقابل ، يمكن لمحقق خاص كان ينتمي للشرطة القضائية سابقاً أن يعرف يوماً بيوم نتائج التحقيق الجاري . . .

«هناك حقيقة ثانية قائمة إلى حد ما : لست هنا إلا لكي أعلم السيد مورينو عن تحركات المفوض لوكاس .

«بقي لي أن أعلم سبب حالة الأشياء هذه وأبني حبكة الأحداث .

«البيت هادئ محافظ ظاهرياً . السيد مورينو غني . لديه أولاد .

«استعلمت ، وكانت النتائج الأولية التي حصلت عليها مقلقة . كان ظاهر الأمور رصيناً ومريحاً . لكن الآنسة مورينو تذهب إلى السوق بنفسها . . . ومورينو الابن يعمل موظفاً بسيطاً في مصرف . . .

«ولاوجود للسيدة مورينو . . . لقد رحلت فيما مضى . . . ، ولم يعد أحد يتكلم عنها . . .

«ربما كان اللغز في مكان آخر . المفوض لوكاس يبحث على متن وحول الماري ـ غالانت . .

«أما أنا ، فقد أردت البحث هنا ، في هذا البيت ، حيث لايسمح حتى لشعاع الشمس أن يدخل .

«لم يدفع لي من أجل هذا! أدرك أنهم لايسمحون لي حتى أن أضع قدمي في الشقة ، وأن أسئلتي ستبقى من دون إجابة ، أو لن تتلقى إلا إجابات كاذبة .

«لذلك تصنعت الزكام والتزمت غرفتي . جاؤوا بمحقق خاص ، وهاهو المحقق مختفٍ ، ولايؤدي الخدمات المنتظرة منه! . . .

«النتيجة الأولى ، زيارة فيليب الصغير . . .

«النتيجة الثانية ، وهي التي كنت أهدف إليها ، يقلق السيد مورينو ، وتثور أعصابه ، يأتي لرؤيتي في نزل سكة الحديد ، حيث يشعر بالاطمئنان لعثوره على المحقق بالبيجاما ، لفاعه حول عنقه ، تهزه نوبات السعال . . .

« لايبقى عليّ إلا دخول المكان دون مضايقة من أحد . . . لقد تجاوزت حقوقي طبعاً . . . ولك الحرية سيد مورينو بملاحقتي قضائياً لأني دخلت بيتك بالحيلة . . . عندما كنت في الشرطة الرسمية ، ماكنت سأسمح لنفسي بهذه المخالفة للمهنة الأشد صرامة ، كان سيلزمني مذكرة تفتيش موقعة من قاضٍ .

« لكن ، عندما استدعيتني ، ألم تطلب مني اكتشاف الحقيقة ؟

« بئساً لك إن اكتشفتها! . . . كذبت على موظفيك اللذين تركاني أدخل شقتك الغامضة . . . كذبت على ابنتك التي في هذه الساعة تنتظرك بقلق في المحطة . . .

« هاأنا وحيد في المكان . . لاشيء في الصالون . لاشيء في غرفة الطعام ، التي تبقى مصاريعها مفتوحة مساءً ، وتتيح للمارة ملاحظة أن البيت شريف وأن الموسيقا تعزف فيه مع الغناء العاطفي المؤثر .

« لكن هناك غرفة النوم . . . هناك باب مغلق ، باب حمام حرص أحدهم على أخذ مفتاحه . . .

« يكفي سلك حديدي منحن . . . خلف الباب ، امرأة . . .

« لست عرافاً . . . في رواية بوليسية ، ربما كان الكاتب سيجعلني أحل لغز الماري ـ غالانت من خلال محاكمات تعتمد على العناصر التي أملكها وحدها . . .

« خلال التطبيق العملي للمهنة ، يعرف المرء أن المشكلة ليست معقدة إلى هذا الحد . . . عليك أن تعرف أين تكمن الحقيقة وتذهب للبحث عنها .

« حسناً! شعرت أن الحقيقة هنا وجئت لكي أعرفها . . .

« عثرت على السيدة وأكرهتها على الكلام . السيدة مورينو التي لم تمت في مدينة بريم كما أردت أن تؤكد منذ قليل . . . »

تكلم مجهز السفن أو بالأحرى دمدم بمقاطع كان عليها أن تؤلف الجملة التالية :

ـ كم تريد ؟

ـ مقابل اكتشاف الحقيقة أم مقابل الصمت ؟ . . . سوف نتكلم عن ذلك بعد قليل . . . أنا أمارس مهنتي في هذه اللحظة . . . طلبت من «ج٧» الاهتمام بالقضية وقد اهتم بها . . . وهو يعطيك الآن نتائج تحقيقه ، دون أن يقلقه علمه أنك تعرفها قبله . . .

« أنا رجل صاحب ضمير حي سيد تورينو . . . نقاشي مع السيدة ماكان بحاجة لكي يكون طويلاً ، وبالمحصلة لم تحبس وقتاً طويلاً في غرفتي . .

« أختصر . . . على طريقة البرقيات . . . منذ إحدى وعشرين سنة ، لم تكن مؤسسة مورينو الابن على نفس صلابتها الآن ، بالرغم من واجهتها المبنية بالحجر الفرنسي . غرق لها مركبان مرة تلو مرة وامتنعت شركة التأمين عن الدفع ، لأن احتياجات الأمان لم تكن متخذة كلها . . . فُقد رجال في البحر . ووجب دفع رواتب لنسائهم .

« يحتاج الأمر إلى مالٍ سائلٍ لسد الثغرات . . . هناك فتاة في سن الزواج صاحبة ثروة لكنها لم تبلغ من العمر إلا ست عشرة سنة . . . لديها دوطة هامة ، أضخم من ممتلكات المؤسسة . . .

« كانت يتيمة ، تعيش مع عمة ممسوسة . . . تقبل الزواج بالسيد مورينو لتتخلص من وصاية هذه المرأة ولكي تصير حرة أخيراً ، وأنت من اقترح عليها أن يتم الزواج تحت نظام شيوع الأموال الزوجية . . .

« عرفت هذا الأمر البارحة ، بعد اتصال هاتفي مع كاتب العدل .

«تصل الفتاة ـ كانت لاتزال طفلة ـ إلى البيت . . . تعتقد أن الحياة الجميلة قد بدأت . . .

«لكن لا! إنهاالحياة الأشد كآبة والأحقر . . . لايتكلمون هنا عن الفرح ، بل عن المراكب والأرباح . كان عليها أن تقوم بأعمال المنزل . . . وينبغي أن تحسب المصروف قرشاً قرشاً . . . هناك دودة في الثمرة ، البخل . . .

«بخل وراثي ، صفة مميزة لعائلة مورينو منذ ثلاثة أو أربعة أجيال . . . بخل مرضي . . . رغبة في زيادة عدد المراكب مهما كلف الأمر . . .

«رزقا بولد . . . ثم ببنت . . . لكن البيت لم يعد مرحاً . . تبلغ الشابة العشرين لكنها تعيش حياة أرملة عجوز . . .

«لم تتمرد على الفور . . . كان يلزم لذلك حدث من نوع آخر . . . لم تعرف الحب . . . لم تعطها عنه إلا صوراً تستحق الرثاء . . .

«تلتقي بشاب . . . تعيش معه مغامرة . . . وتتخذ قرارا ارتجالياً . . .

«ترحل . . .

«كنت تستطيع طلب الطلاق . . . لديك الحق كله في ذلك . . . القانون لمصلحة الزوج المخدوع . . . لكن هناك هذا الزواج اللعين تحت نظام شيوع الأموال الزوجية . . . هناك الأموال التي وضعتها في المشروع ، أسطول مؤسسة مورينو الذي سيتقلص إلى النصف . . .

«فضلت الوضع الهزوء . . . تكتب لك زوجتك مطالبة بثروتها . . . ترسل لها مبالغ زهيدة . . .

« بالنسبة لها . . . تلك هي المغامرة . . لقد تجاوزت الهوة . . . يتركها عشيقها . . . . تتخذ عشيقاً آخر . . . ترقص في الصالات . . . تصير مانسميه بالراقصة الدولية . . .

« تبقى مع ذلك مالكة لنصف اسطول مورينو . . . هذا مايقلقك . . . هذا مايمنعك من النوم . . المرأة بحد ذاتها لاتهمك! . . . المال هو النقطة الحساسة . . .

« تغير اسمها . . . تسافر من عاصمة لأخرى . . . تمضي السنوات وتستجيب أنت دائماً بسخاء أقل إلى طلباتها المالية . . .

« المال! . . . المال الذي ينبغي إخراجه من الصناديق! . . .

« تعرض لك فرصة فريدة . . . فاجعة في بريم . . . موتى في شقة عازب . . . امرأة من دون أوراق ، تنشر الصحف صورتها بغية معرفة هويتها . . . تشبه السيدة مورينو إلى حد ما . . . . ليست هي ، لكن لايهم! تقتلها رسمياً حتى وإن كانت حية! . . . ويهدأ روعك بعدئذ .

« تقوم بالرحلة! تتعرفها! تدفن السيدة مورينو وتصبح مالكاً للملايين أنت وحدك .

« جريمة غريبة لم يفطن القانون لها! القتل من دون قتل! قتل الكائن الحي رسمياً وتركه حياً . . . دفن امرأة مجهولة هناك في ألمانيا تحت اسم السيدة مورينو التي من جهتها كانت تتجول في العالم دون أن تفطن لأي شيء . . .

« فقدت المرأة كل اتصال بالحياة الشريفة . . دخلت في الأوساط المشبوهة كلها . . وتورطت في مغامرات ليست نظيفة تماماً . .

« كل ذلك لأنها انطلقت بشكل سيء سابقاً . . . لأنها لم تجد البيت الذي يحق لها أن تأمله . . .

« كانت تشارك في مجموعة من الناس الأنيقين الذين ينتقلون من عاصمة إلى أخرى ، تراقبهم الشرطة ، لكن معاقبتهم ، احتمال نادر لأنهم ماهرون أو لأن نصوص كتاب التشريع لاتطالهم .

«احتيالات . . . تهريب مخدرات . . . لديها عشاق ومغامرات . . .

« وهاهي ذات يوم تصل إلى هنا ، جريحة . . . ليس في جسدها . . . عملية فاشلة في باريس . . . ابتزاز تشهيري والضحية بدلاً من أن تترك نفسها تسرق تسحب مسدساً . . . فيطلق عليها عشيق السيدة مورينو النار . . .

« يلاحق وكذلك عشيقته . . . الحدود مغلقة . . . يتجولان ضمن الشبكة الواسعة التي مدتها الشرطة . . .

« كانا عرضة للموت . . من أجل النجاة وتغيير القارة يلزم المال ، الكثير من المال . . .

«السيدة مورينو لديها المال . . هناك دوطتها ، ملايينها المستثمرة في مصانع مورينو . . تأتي إلى هنا . . تطلب . . تتوسل . .

«لكن مورينو يترك الآخرين يسلخون جلده ولايتخلى عن المال . . . يخاف مع ذلك من الفضيحة . . . يتساهل . . . يبخل . . . يجادل كنخاس . . .

«المال ، ليس لديه مال . . . لا! بالرغم من كل النوايا الطيبة في الدنيا فإنه لايستطيع منحه . . . بيد أن هناك مركباً قديماً ، مركب يتعفن في الحوض منذ ثلاثة سنين ، لم تعد له أية قيمة . . .

«ليأخذ الهاربان هذا المركب . . . ليذهبا . . . هذا كل مايستطيع فعله من أجلهما . . . وهو كريم بفعله هذا! . . .

«تختبئ السيدة مورينو بانتظار الرحيل في حمام زوجها . . . أما العاشق فمن جهته سيصلح المركب ببعض المعونات المالية . . . يدفعون له ثمن قطع الغيار وبراميل الوقود . . .

«ليذهبا! . . . ليبحرا إلى انكلترا أو أية جهة أخرى ، لكن بحق الله لايريد أن يسمع سيرتهما بعدها! . . .

«ينبغي ألا يعرف أحد أن السيدة مورينو على قيد الحياة! ينبغي خاصة ألا تطالب قانونياً بنصف الثروة! . . .

«وهاهو العشيق يعمل كل مساء على إصلاح المحرك . . . ستكون الماري ـ غالانت قريباً صالحة للإبحار . . .

«أهذا كل مايتمناه ؟ ألن يبدأ كل شيء من جديد ذات يوم ؟ . . .

ألن تطالب السيدة مورينو بعد نجاتها من قبضة الشرطة من جديد بأملاكها ؟ . . .

«ألا تشكل وهي حرة تهديداً مستمراً لثروة آل مورينو ؟ . . .

«أما في الحمام ، على العكس ، لن تطالب بشيء . بعض الغذاء كل يوم . . . وهذا كل شيء! . . . ولن تستطيع الاتصال بأحد! . . .

«ينشغل بال السيد مورينو! . . . ينشغل باله بمجرد التفكير أن الأمرسيكون رائعاً عندما لن يعود عرضة للتهديد المعلق فوق رأسه .

«بيد أن العشيق في المرفأ يطالب برفيقته . . .»

يصمت «ج٧» . مازلت أسمع صرير علبة سجائره المعدنية ، التي فتحها ضاغطاً على النابض .

ـ سيجارة ، سيدتي ؟

تتناول واحدة بشراهة ، تشعلها من تلك التي لم تعد إلا لفافة بطول سنتمتر .

ـ هذه هي المشكلة كلها : المركب في المرفأ ، مستعد للرحيل . . . . الرجل الذي فيه تطارده الشرطة . . . السيدة مورينو في هذا الحمام . لو انطلقا ستكون هنالك مطالب مالية جديدة . . . إن لم يغادر الرجل سيحتج ويطالب بعشيقته . . .

« كانت المؤسسة حينها أقل صلابة ، والأرباح ليست وفيرة . وسفن عديدة معطلة .

« أيعطي المزيد من الأموال ؟ . . . أبداً! مؤسسة مورينو شيء مقدس ،لايمس ، ينبغي التضحية من أجلها بكل شيء . . .

« أخذ يخطط لتدابير مستحيلة واحدة بعد أخرى . . . لو يموت العشيق فقط! . . . ولايبقى إلا المرأة المحبوسة في الحمام . . .

« لكن العشيق حي يرزق . . . »

أصبحت نبرة « ج٧ » لاذعة .

تمتم قائلاً :

ـ الله كفيل بالأنذال! . . . أليس كذلك يامورينو ؟ . . . الله أو الشيطان . . . يستجوب امرأته . . . يعلم شيئاً فشيئاً ، أن للعشيق عشيقة قديمة في باريس ، وأن هذه العشيقة غيورة ، وتريد الانتقام لنفسها . . .

حينذاك يأتي بها إلى فيكامب ويكشف لها عن مخبأ الرجل . . .

« وكان حاضراً عندما توسلت إليه أن يرجعا للعيش سوية ، وعندما هددته بالفضيحة إن تركها إلى الأبد . . .

« كان مختبئاً . . . ينتظر . . . لم تطلق المرأة المسلحة النار

كما تمنى . . . لا! إنه العشيق الذي خنقها مذعوراً عندما وجد نفسه في وضع حرج .

« حركة جنون . . . حركة رجل تتربص به المقصلة . . . يهرب بعدها دون أمل بالعودة . . .

« هل هذا صحيح يا مورينو ؟ . . . هل صحيح أنك بقيت مع الجثة التي ماكنت أعرفها ؟ . . . وأنك حينئذ كنت مذعوراً بدورك ، ففككت لحام الخزان ؟

« لكن هذا لم يكن كافياً . . . أنت رجل تحتاط لكل شيء . . . أنت رجل شديد الخوف ، وككل الذين يخافون بشدة ، تفرط بالتدقيق ، وتبحث عن تعقيدات لافائدة منها . . .

« تشكل هذه الجثة في الخزان تهديداً مستمراً . . . يمكن لعامل أن يكتشفها . . . . المركب جاهز . . . تشغله . . . تعرف المرفأ أكثر من أي شخص آخر . . . تجتاز السكر . . .

« وبعد أن تثبت دفة القيادة على الوضعية المستقيمة تقفز إلى الرصيف وتترك ماري ـ غالانت ترحل بمفردها وعلى متنها جثة . . .

« سوف تتحطم على الصخور في مكان ما ، أو تتوقف لنفاد الزيت . . .

« هناك شخص واحد لن يشك فيه أحد : صاحب المركب . . »

صمت ثقيل . ثم يستطرد صوت صاحبي المرح :

ـ أعتقد أننا اتفقنا على خمسة وعشرين ألف فرنك مقابل اكتشاف الحقيقة . . . بالاضافة إلى حرية السيدة . . . أنت لم تقتل أحداً . . . ولم تسرق بالمعنى الحرفي للكلمة . . . ليس واجبي إذاً كمواطن أن أبلغ عنك . . .

رأيته ، في مكتب الطابق الأرضي ، يعد بعناية الخمسة والعشرين ألف فرنك ، ثم يرافق السيدة مورينو إلى المحطة ويحوزتها بطاقة درجة ثانية إلى باريس ، حيث وعد «ج٧» بحمايتها .

عندما صرنا وحدنا في الطريق تنهد قائلاً :

ـ هذا هو حظي! في أول قضية لي أسخطت زبوني بنجاحي! . . . يالها من دعاية! . . .

قلت له زاماً شفتي :

ـ هيا لنشرب شيئاً ما!

كنت في الواقع مريضاً من كل هذا الأمر . طلبت كحولاً بالماء ـ كثيراً من الكحول وقليلاً من الماء ـ كان «ج٧» ينظر إليَّ بابتسامة غريبة ، ختم قائلاً :

ـ حكاية ماكنت ستبدع مثلها ، أليس كذلك! . . . هذا لأن الروائيين يفتشون ببساطة عن مواضيعهم في أوساطها الخاصة . . . عندما تريد كتابة حكاية مأساوية جميلة ، استهدف بيتاً بورجوازياً ، وقور المظهر إلى حد ما . . . . ادخله . . . عبثاً تحاول أن تجد ماهو أفضل من الواقع!

مورسانغ حزيران ١٩٣٠



ثلاثة تحقيقات جنائية لـ : ج ٧

الـ : غران لانغوستييه :

اختفت ثلاث نساء في بوركرول . وحامت الشبهات حول هنري ، وهو مالك الـ : غران لانغوستييه ودون جوان ذو ماض مبهم المعالم . وهذا الماضي بالضبط هو ما يقلق ج٧ . والضغينة في بعض الأوساط تظل راسخة في النفوس ويمارس الذين يكنونها الثار طويل الأجل . ولم يكن من شأن نجاحات هنري النسائية أن تيسر له ترتيب أمره .

في سياق طراد مثير في تعقب المجرم ، يكتشف ج٧ قاتل النساء الثلاث ، ويمنح نفسه المتعة الرائعة في توقيف المجرم ، ولو بعد حين .

إن العدالة لهي ذات صبر .

ليلة الدقائق السبع :

في منزل منعزل في الأسنيير ، قتل جنرال روسي بطلقة من مسدس . هل الأمر انتحار ؟ أم هو جريمة اغتيال ؟ اللغز تام . ومع ذلك ، يعثر ج ٧ على الحل لأنه وقع في هوى صورة فوتوغرافية .

الـ : «ماري ـ غالانت» .

«ماري ـ غالانت» ، المهجورة منذ سنوات في مياه حوض المرسى ، تقلع ذات ليلة إلى عرض البحر كما لو أنها مركب شبح . على سطحها : لا أحد . وفي أنبار المركب . . جثة امرأة .

يكلف صاحب شركة المراكب الذي يملك ماريا ـ غالانت ج ٧ بالقيام بتحقيق مواز للتحقيق القضائي . يصاب ج ٧ بزكام ، فيبقى في غرفته ناظراً الى الميناء . وتبدو الأمور وكأنها نامت . وفجأة ورغم كل المظاهر ، يفجّر ج ٧ الحقيقة .



دار المدى للثقافة والنشر